

الفصل الثاني

السيرة

١

منشبت البارودي ومرباه

لا نكاد نمضي إلى أواخر العقد الرابع من القرن الماضي حتى تدق ربة الشعر البشائر بمولد محمود سامي البارودي الذي اختارته من دون العرب لعصره وأتاحت له من الموهبة الفنية ما يُعيد به إلى الشعر العربي رونقه القديم وما كان يشيع فيه من نضرة وحياء . وهو سليل أسرة جركسية ، تنتمي إلى حكام مصر المماليك ، وكان أحد أجداده - مراد بن يوسف بن شاويش - ملتزماً في العصر العثماني بلبله إيتاي البارود إحدى بلاد محافظة البحيرة ، ومن ثم لقب بالبارودي نسبة إليها ، وحمل أبناؤه بعده اللقب ، ويلقانا منهم في عهد محمد علي شخص بين كُشَّافه يسمى عبد الله ، ووظيفة الكاشف حيثلذ تقابل وظيفة المأمور في أيامنا ، وكانت وظيفة مرموقة . وكان له ابن يسمى حسن حسني ما زال يترقى في الجيش المصري حتى أصبح من أمراء المدفعية ، ثم عُين مديراً للمديرية دنقلة في السودان .

وقد ولد لهذا الضابط الذي كانت تمتلئ نفسه بالطموح والشعور بالشجاعة والقوة محمود سامي في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٥٥ المقابل للسابع من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٩ وفتح الطفل عينيه على هدّ هدة ربة الشعر وما تثيره بجناحيها حول مهده من حركات تبعث فيه الحيوية والنشاط ، كما فتحهما على أسرته وما تستشعره من بأس واعتزاز بالنفس ، اعترازاً تجسّد في أبيه الذي رقى إلى أعلى المناصب في الجيش ، ومضى يطمح إلى تقلد المناصب الكبرى ، حتى لو نزحت به عن مسقط رأسه ، بعيداً في دنقلة ، وكأنما كان حقه في أمينته ، أو كأنما أرادت ربة الشعر للطفل أن لا يظل ناعماً بحنان أبيه وما يغمر به حياته من لين العيش ورافقه ، أو قل كأنما أرادت له أن يمس الحزن قلبه ، وهو لا يزال في

المهد صبيًا، حتى تدكى جنوةَ الشاعرية فيه، فإن الحزن من شأنه أن يصقل النفس وأن يجعلها أكثر صفاءً، وأكثر رقة، فلم يكدي يبلغ السنة السابعة من عمره، حتى سلبه الموت أباه، مختلفًا له الحسرة واللوعة، ومن قوله في رثائه حين ناهز العشرين من عمره:

مَضَى، وَخَلْفَنِي فِي سَنٍ سَابِعَةٍ لَا يَرْهَبُ الْخَصْمُ إِبْرَاقِي وَإِرْعَادِي^(١)
 إِذَا تَلَفْتُ لَمْ أَلْمَحْ أَخَانُثَةً يَاوِي إِلَى وَلَا يَسْعَى لِإِنْجَادِي^(٢)
 فَالْعَيْنُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دَمْعِهَا وَزَرٌّ وَالْقَلْبُ لَيْسَ لَهُ مِنْ حَزْنِهِ فَادِي^(٣)

فكارثته في أبيه لم تدلح في قلبه الحزن وحده بل دلعت معه تجربة مبكرة له بالناس وما تنخر به حياتهم من غدر وكيد ومكر وظلم، وهي تجربة ظلت أصدائها تردّد في شعره، وزادتها الأحداث المختلفة في حياته حدةً إلى حدة.

وقد كَفَلَتْهُ أمه، وكانت جركسية كأبيه، وقامت على تربيته خير قيام، فأحضرت له - شأن أترابه حينئذ من ذوى النعمة واليسار - المعلمين كى يؤدّبوه ويلقنوه القرآن الكريم وشيئًا من الفقه الإسلامى ومن التاريخ والحساب والشعر. ويبدو من ذلك في وضوح أن الثقافة العربية الإسلامية كانت هى الثقافة التى تُجَلِّها أسرة البارودى، وتُسْنِغُفُ بها حبًّا، وهو شغف، سال من ينايحه الشعرُ على لسان خاله إبراهيم، وفي ذلك يقول:

أَنَا فِي الشَّعْرِ عَرِيقٌ لَمْ أَرِثْهُ عَنِ كَلَالَةٍ^(٤)
 كَانَ إِبْرَاهِيمُ خَالِي فِيهِ مَشْهُورَ الْمَقَالِ

وهو لم يَرِثِ الشعرَ عن خاله وأسرته فحسب، وإنما ورث أيضًا إيمانًا عميقًا بالعروبة والإسلام، ظلت رِبَّةُ الشعرِ تدبّع أحاسيسهما على لسانه. وكان من

(١) الإبراق والإرعاد: التهديد والوعيد.

(٢) ولا يسمى: يريد البارودى ولا أجد أحدًا يسمى فحذف لضرورة الشعر إيجازًا، أولاً زائدة.

(٣) الوزر: الملجأ والمتمص. (٤) الكلاله: النسب البعيد.

حسن الحظ لشعرنا الحديث أن أسرته لم تتجه به إلى التعليم الديني الذي كان ينهض به الأزهر لعصره ، إذ كان قد انتهى إلى صورة جافة معقدة ، لعله لو اقتحمها لفضل في شعابها ومنعرجاتها ولما استطاع أن يتخلص لنفسه ولا لشعره ، وأيضاً فإنها لم تتجه به إلى التعليم المدني ، وتقصد التعليم التجهيزي الذي انتشر في عهد محمد علي ، وظلت منه بقية في عهد عباس الأول ، لأن العناية بالشعر العربي في هذا التعليم كانت محدودة ، ولم يكن من شأنها أن تُرضى أصحاب المواهب من أمثال البارودي .

فتعلمه في سنه الأولى بمنزله كان ذا عائدة عظيمة عليه وعلى الشعر العربي الحديث ، ذلك أنه وجد وقتاً فسيحاً أمامه كي يقرأ في حرية ما يتذوقه من الشعر القديم حافظاً له مرة ، ومردداً مرة أخرى . وبذلك أتيح له أن يعاشر الشعراء القدماء في سن مبكرة ، وأن يتصل بهم اتصالاً شديداً ، اتصالاً ظل يزداد توفيقاً مع الزمن ، وظل يؤثر في مزاجه وخياله وعقله وقلبه . ونراه في سنة ١٢٦٧ هـ / ١٨٥٠ م يلتحق بالمدرسة الحربية يريد أن يتخرج منها ضابطاً على شاكلة أبيه رغم ما نُكبت به مصر في جيشها منذ مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ وكأنما كان يستشعر في قوة أجداد أبيه الحربية وأجداد أمته العسكرية التي سجلتها بدمائها في عهد محمد علي . ولو أنه لم يبدأ شغفه بالشعر العربي وشعرائه القدماء قبل التحاقه بهذه المدرسة لما قُدِّر لشاعريته أن تفتتح في سن مبكرة ، بل ربما حالت بينه وبين الشعر أو صرفته عنه ، إذ كانت تُعنى بتعليم تلاميذها التركية وآدابها ، وكانت تسد عليهم كل طريق للعناية بالعربية فضلاً عن أشعارها ، مُسرفة فيما تأخذهم به من ضروب العقاب حين يتكلمون بها ، أو يتحدثون ، إذ كان الكلام بها والحديث في ردهات المدرسة يُعدُّ جرماً لا يُغتفر ، جرماً يُنزل بمن اقترفه أعنف ما يكون من صور العقاب ، وفي ذلك يقول الشيخ المهدي في مذكرات الأدب التي كان يُبليها في مطلع هذا القرن على تلامذة مدرسة القضاء الشرعي : « كانت اللغة العربية مضطهدة في عهد عباس الأول إلى حد أن من تكلم بها من طلبة المدارس الحربية توضع في فيه العقلة التي توضع في فم الحمار حينما يُقَصّ ، ويبقى كذلك نهاراً كاملاً عقوبة له على تحريك لسانه بلغة القرآن في أثناء فسخته » .

وفي هذه الأيام من عهد عباس الأول دخل البارودي المدرسة الحربية ، فلم تستطع أن تردّه عن مناهل الشعر العربي القديم ، بل لقد مضى يَعْكُفُ عليها ويسرف في العكوف ، وكأنما أصبحت جزءاً من نفسه . وكانت العروبة تتعمق في هذه النفس بحكم أسرته وتعلقها بها كما قدمنا وبحكم بيئته المصرية العربية ، فَعَظُمَ حبه للشعر العربي ، ومضى يعاشر شعراء القدامى ، يقرؤهم وتمثّل نفسه ما يقرؤه . وكان ما يزال في فتوة الصبا ، فأكبّ على شعراء الحماسة وملكوا عليه قلبه ، لما صوروا من المعارك ، ولما بثوا في تصويرهم من أحاسيس عارمة بمغالبة الحياة ومن مشاعر قوية بعلو الهمة وبتحقيق الآمال العريضة ، شاعر من شأنها أن تدفع صاحبها دفعاً قوياً إلى طلب المجد يسلك إليه كل سبيل .

وتخرّج في المدرسة الحربية برتبة باشجاويش سنة ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م لأوائل عهد سعيد ، فمضى يغذى موهبته بالشعر القديم ، وكانت المطابع قد أخذت تُعَنِّي بنشر بعض الدواوين ، فانتسعت أمامه فرصة الاطلاع والقراءة . على أنه لم يكن يكنى بما طُبِعَ منها ، فقد كان يطلب نفائسها التي لا تزال مخطوطة والتي كان يعلوها الغبار حيث ترقد في مكتبات المساجد . ومضى يعبُّ وينهل محولاً إلى نفسه هذا السبيل العزيز ، وكان أكثر ما يستهو به فيه—كما قدمنا—أشعار الحماسة والبطولة والقوة ، فكان ما يزال يرددها على لسانه وسمعه ، وكان ما يزال يتغنى بفرائدها محسناً أن كل بيت فيها ، بل كل كلمة وكل حرف يتفصل من ذات نفسه ويصدر من صميم قلبه . وكانت تقترن بهذه الأشعار فتوة حادة يتغنى فيها الشعراء بالحب ومشاعره والقنص ومشاهده ، كما يتغنون بالحرر ودنانها وملاذها ونُدَمانها ، فانسكبت هذه الفتوة في روح البارودي وأصبحت جزءاً من نوازع نفسه . وكان يقترن بها أيضاً عند المتنبّي ونظرائه ضرب واسع من الحكمة ، ولم يلبث أن سرى في حنايا عقله وقلبه .

وتفجّر ينبوع الشعر على لسانه ، ونفسه تغلى كالرجل ، بما يتمثل من شعر الحماسة القديم وما يُطوَى فيه من فتوة ، وبما يترأى له في الأفق البعيد من أمجاد أسلافه المماليك الذين عصفوا بالصليبيين والمغول ومزّقوهم كل ممزّق ، وبما يترأى له في الأفق القريب من أمجاد أبيه وأقرانه في حروب محمد علي ، هؤلاء الذين ركزوا

أعلام مصر على مشارف الشام وبلاد العرب وفي سهول الأناضول . ولم تلبث ربّة الشعر أن حلت عقال لسانه ، ففضى يشدو بأنغام ، تفيض قوة وحماسة وطموحاً إلى المجد لا حد له ، وكأنه يريد أن يحقق ما تمنو له الرجوه ، بل ما تنقطع دونه الرقاب ، على شاكلة قوله :

هو ما قلتُ فاخترنُها صَباحا	غارةٌ تملأُ الفِضاءَ رِماحا
لا ترى بينها سوى عبقرى	يألفُ الطَّعْنَ نَجْدَةً وارتياحا
لهجُ بالحروب لا يَأْلَفُ الخَفُّ	ض ولا يصحب الفتاة الرِّداحا ^(١)
مِسْعَرٌ للوعى أخو غَدوات	تجعل الأرض مَأْتَمًا وصياحا ^(٢)
لا يُرى عاتبا على شيمِ الدِّه	ر ولا عابثا ولا مزاحا
يَفْعَلُ الفَعْلَةَ التي تَبْهَرُ النَّا	س وترنو لها العيونُ طِماحا

والبيت الأخير يصور مدى ما كان يطمح إليه من الإتيان بأفعال مجيدة تعز على أمثاله . وظل هذا الطموح يرافقه طوال حياته ، بل ظل يشب به ، حتى حلق في مراقي المجد واعتلى منصة الوزارة . وكان في هذه الفترة من حياته فترة الشباب المتقد يحلم بالمجد الحربى ، ومن ثم مضى في هذه الأبيات يبرق ويرعد مهدداً بغارة لا تبتى ولا تذر ، ولكن أين يسوق هذه الغارة وأين تظهر عبقريته الحربية وقد أصبح الجيش المصرى بعد مؤتمر لندن مقصوص الأجنحة لا يستطيع نهوضاً ؟ لقد فكر وقد وهدهاه تفكيره وتقديره إلى أن يترك الجيش ، بل يترك وطنه كله إلى الآستانة حاضرة الدولة الكبرى ، لعلها تحقق له من المجد السريع ما لم يحققه الجيش . وسرعان ما التحق هناك بوزارة الخارجية . وفرحت ربّة الشعر بهذا الجو الجديد الذى سيتيح له أن يدعم صلته بالآداب التركية ، وكان قد ثقف منها شيئاً فى المدرسة الحربية ، وهاهو اليوم يصحب الترك فى حياته اليومية . ويصحب أدبائهم فى حياته الأدبية ، وتشتد صلته بهم اشتداداً يدفعه إلى أن يجاريهم ويحاكيهم فيما

(١) الخفض : النعة ونموة العيش . الرداح : المملوءة اللحم .

(٢) مسعر : موقد لئار الحرب .

ينظمون وينثرون ، فإذا له شعر ونثر تركيان ، ويظهر أن ما صنعه منهما لم يكن يرضيه ، ومن ثم سقط من يد الزمن .

ولم تتعقد ربة الشعر حينئذ صلةً بينه وبين الآداب التركية فحسب ، فقد عقدت أيضا صلةً بينه وبين الآداب الفارسية ، فتعلم لغتها وأتقنها ، ثم أخذ ينظم فيها على شاكلة ما نظم في التركية . وكأنما أرادت ربة الشعر أن تجمع له الأسباب التي جمعتها قديماً للشعراء النابيين في أوائل العصر العباسي ، فإذا هم يعثون الشعر بعثاً جديداً ، وكان في مقدمة هذه الأسباب ما تقفوه من الآداب الفارسية ، وإذن فلتتهيئ ذلك للبارودي ، حتى تُهتدى إلى العرب في عصرهم الحديث شاعراً فنداً يُدركي جذوة الشعر العربي بعد خمودها على نحو ما أذكأها بشار بن بررد الفارسي وأضرابه في العصر العباسي .

على أن ربة الشعر حين كانت تدفعه إلى هذا الاتصال بالآداب الفارسية والتركية إنما كانت تدفعه بمقدار ، إذ سرعان ما كانت تردُّه إلى شعراء العرب القدماء وإلى دواوينهم المخطوطة التي كانت مبنوثة على رفوف المكتبات في الآستانة ، فكان ينقطع إليها إنقطاعاً من حين إلى حين ، يستظهر روائعها مستعيناً بذاكرة قوية كانت كأنها آلة من آلات التصوير ، فهي لا تلم بشيء إلا وتلقطه وتسجله ، وما يزال عالقاً بها لا يبرحها مهما طال عليه الزمن . ولم يكتف بما كانت تستظهره ذاكرته من هذه الدواوين ، فقد ملأ حقايبه بتحفظها النفيسة ، يعاونه طائفة من النساخ . وظل كلفاً بهذه النزعة من جمع الدواوين المخطوطة ، يجمعها من كل مكان ، حتى تكوَّنت له منها مكتبة ضخمة .

والحق أن مقام البارودي بالآستانة كان نعمة على شاعريته الخصبية ، فقد زادها خصباً على خصب ، بما استوعبته من الآداب الفارسية والتركية والآداب العربية نفسها ، وسرعان ما نضجت . وحنَّ البارودي إلى وطنه وعيبره الذي يُحسني النفوس والقلوب ، وبينما هو يفكر في عودته إليه قدم إسماعيل إلى الآستانة سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٣ م . ليرفع إلى السلطان العثماني فروض الشكر على تنصبيه والياً على مصر ، وانتهز البارودي الفرصة المواتية فالتحق بمحاشيته وعاد معه إلى وطنه الحبيب . وبذلك يختم البارودي هذه الدورة الأولى من حياته ، وقد أكلت ربة الشعر

مَرَّباه، وأعانتته بما لم تعن به سواه من معاصريه ، لا بما ثَقَّفته به فحسب ، بل أيضاً بموهبته الشعرية وبصره الدقيق بمواضع الكلم وحسه الثاقب بروائعه حسياً جعله يشبه أدق الشبه نحلة في حديقة ترشف من أزهارها الأريجة . وسرعان ما أخذ يحيل ما يرشفه من دواوين الشعر العربي رحيقاً حلواً صافياً ، رحيقاً يحتفظ بنفس الطعم ونفس اللون اللذين نعرفهما لفرائد شعرنا القديم . ومن خير ما يمثل ذلك في مطالع حياته قصيدته :

سِوَايَ بَتَحْنَانِ الْأَغَارِيدِ يَطْرَبُ وَغَيْرِي بِاللذَاتِ يَلْهُو وَيُعْجَبُ

فإنه استعار إطارها من الشريف الرضى في قصيدته :

لغير العُلا مني القلي والتجنب ولولا العلا ما كنت في الحب أرعب

وهي استعارة تقف عند الإطار من الوزن والقافية والصياغة الجزلة المصقولة ، أما ما وراء ذلك فللبارودي ولأحاسيسه التي يتلقى منها الفيض ، وهي أحاسيس كانت تفيض كما أسلفنا بحماسة وفتوة متوقدة . وقد أخذت تهزه هزاً عنيفاً كي يتحدث عن مَصائبه وبعد عزمه وعلو همته وكرم شيمه واندفاعه في طلب المعالي ونفوذه من ظلم المشكلات برأيه المضيء السديد . ومضى يتحدث عن اقتحامه لميادين الحروب وبلائه فيها البلاء الحسن . وانتقل يصف خروجه مع بعض رفاقه للقنص متحدثاً عن أدواته من الخيل والكلاب والبُرَاة وعن مغائهم فيه وكيف وصلوه بفنون من اللهو وبكئوس الخمر ودنائه . ويفرغ إلى نفسه مفكراً في الدهر وتقلباته وفي الأقدار وأحكامها التي تجري في الناس . وإذا أضفنا إلى ذلك بعض أشعاره المبكرة في الحب عرفنا الأوتار التي شَدَّتْهَا رَبَّةُ الشعر إلى قيثارته في مستهل حياته الفنية ، والتي مضى يوقع عليها ألحانه وأنغامه .

بين السيف والقيثارة

عادت ربة الشعر بالبارودي إلى مصر ، وهو في ريعان الشباب ، وقد مضت تسلك به السبيل التي شُخف بها منذ أن كان صبياً : سبيل الجيش والحرب ، ولم يلبث أن رُقي إلى رتبة بكباشي (مقدم) وعُيّن قائداً لفرقتين من فرق الفرسان . وخنق قلبه طرباً ، إذ أصبح فارساً ، بل كبير فرسان ، وهم رهن إشارته ، وهو يغدو ويروح ، وفرسه يصهل من تحته ويلوح بعُرفه . وسرعان ما أُوفد إلى فرنسا مع فرقة من الضبّاط ليشاهدوا الاستعراض السنوي للجيش الفرنسي ، وعبر « المانش » مع رفاقه إلى إنجلترا ليشاهدوا بها بعض الأعمال العسكرية والآلات الحربية . وهو في أثناء ذلك يردّد بصره في المناظر الطبيعية الميثوثة في البلدين ، كما يردد في صور الحضارة الغربية . ورجع لتملأ مصر نفسه بهجة ، إذ رُقي في سلاح الفرسان سريعاً إلى رتبة قائمقام (عقيد) ثم إلى رتبة أميرالاي (عميد) مع قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص .

وعلى هذا النحو كان يمسك بإحدى يديه في هذه الدورة الثانية من حياته قيثارته ويمسك باليد الأخرى سيفه ، مما جعل شاعريته تنبعث في صدره بعثاً قوياً ، بعثاً أضرم جذوة الحماسة والحب واللهو في نفسه لإضراراً ، فإذا هي تشتعل اشتعالاً وإذا هو يرسل أناشيد حماسية ملتهبة ، ترمي بالشرر ، شرر فروسيته التي كانت مكتنئة في طوايا نفسه ، ومخترنة في حنايا مخيلته ، قد سُدّت من دونها الشعاب والطرق ، ومع ذلك تنساب ، ولكن في تعثر وبطاء بطيء ، أما اليوم فقد تفجرت ينباعها تفجراً ، وانفتحت أمامها كل الطرق والشعاب ، وسيولها ما تني تندافع تدافعاً قوياً ، محطمة كل ما تلقاه من سدود .

وبونٌ بعيد بين أن يستشعر الشخص معاني الفروسية عن طريق التصور والخيال وبين أن يستشعرها عن طريق الحقيقة والواقع ، والبارودي منذ نشأته فارس ، ولكن ظروفها كانت تغل فروسيته ، بل كانت تجعلها ضرباً من الوهم ، غير أنه

لم ينكص على عقبيه ، فقد ظل مخلصاً لفروسيته حتى انجابت عنها الأغلال والقيود ، وأسعفته المنى بكل ما كان يريد ، فقد فتحت أمامه أبواب الأمل في مستقبل باهر ، كى يحقق ما يريد من أجماد حربية وغير حربية ، وتهدأ له غير قليل من الثراء عن طريق ما ورثه عن آباءه وما رفته به راتبه في الجيش ، مما مهد له حياة ناعمة راضية .

ومعنى ذلك أن فروسية البارودى لم يكن يحفها شيء من شظف العيش أو التقدير في الرزق ، وإنما كان يحفها الثراء والجاه والآمال العريضة ، كما كان يحفها - على نحو ما أسلفنا - إحساس عميق بأجماد الآباء ، وتضافرت أسباب مختلفة من عروبة أمته وأسرته وثقفه بالشعر الحماسى القديم على أن تكون حماسة عربية خالصة . والبارودى من هذه الناحية يُعدُّ مثلاً رفيعاً للفارس العربى ، بل لكأنما وُجد ليُجسد تجسيداً فروسية العرب على مر الزمن من العصر الجاهلى إلى عصر حروب الصليبيين والتتار ، فقد أشربت روحه نحو عشرة قرون من فروسيتهم ، وتمثلتها عن طريق ما وعت من الشعر العربى الحماسى تمثلاً منقطع القرنين .

لم تمثل معارك الحرب وصليل السيوف والرماح وصور الطعان والتزال فحسب ، بل تمثلت في قوة شيم فرسان العرب النبيلة التى طالما تغنوا بها من مثل الأنفة والإباء والتجدة والوفاء والشجاعة والمتضاء والكرم والحلم والعفو عند المقدرة وبعد المهمة وتوثب العزيمة والترفع عن الدنيا والطموح إلى الكمال . ولا يتمثل البارودى خلال الفارس العربى الكريمة فحسب ، بل إنه يتمثل شخصيته من جميع أقطارها ، يتمثل فتوته وجراته وإقدامه حتى لا يخشى إنساناً ولا حيواناً ولا فيأى صحراء مهلكة ، ومن ثمَّ تمسك بصورة الصحراء في شعره الحماسى لأنها رمز اقتحام كل المهالك والمخاوف دون اكتراث أو مبالاة .

ومن تمام شخصية الفارس العربى في عصوره القديمة أن يحمل بين جنبيه قلباً عاشقاً وفي يده دناً مسكراً ، وأن يتسامى في عشقه وخمره بحكم سمو نفسه ، فلا يتدننى فيهما ، بل يظل محتفظاً بشيمه النبيلة ، وكلنا يعرف أخبار عنزة الفارس الجاهلى وكيف انتهى حبه لابنة عمه : عبلة إلى ضرب من الحب العذرى الطاهر الذى يعتمر قلب صاحبه اعتصاراً . وكان يحتسى الخمر فلا يفقده مروته ، بل

تريدها اشتعالا واضطراماً . وظلت صورة عنتره حية في نفوس فرسان العرب حتى لقيهم الصليبيون ونصارى الأندلس وصقلية ، فراعتهم روعة شديدة جعلتهم ينقلونها إلى بلادهم في الغرب ، ويستلهمونها فروسيتهم في عصورهم الوسيطة .

وكان البارودي — كما قدمنا — يتمثل هذه الصورة منذ صدر صباه ، غير أنها لم تتكامل في نفسه بجلالها وعمق مشاعرها إلا منذ أصبح فارساً شاكي السلاح ، فقد مضى يعيش لها ويعيش بها ، وكأنما اصطفته ربّة الشعر لكي تنبعث فيه بجميع خطوطها وألوانها النفسية ، بل لكي تحفرها في أذهان معاصريه حفراً .

وتقدمت فهيأت له من الثراء ونعيم الحياة ما جعله يفرغ لشعره بين حين وحين ، كما يفرغ أيضاً بين حين وحين للحب والخمر ، وأيضاً فقد أتاحت له جواً طليقاً ، لكي ينعم بالحرية ، ولكي يعبّ من صفو الحياة . وسرعان ما انطلقت به إلى حدائق جزيرة الروضة النضرة الممتدة في النيل أمام القاهرة لتكتحل عيناه بجمال الطبيعة المشرق وجمال المرأة المضيء وليرخي لنفسه العنان في احتساء الخمر مع رفاقه محيلين بعض الليالي إلى أوقات أنس بهيجة .

وشعره في هذه الفترة التي امتدت من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٦٥ موزع بين الفخر بشيمه الرفيعة وأصله النبيل وبين التغنى بجمال الرياض ونشوة المدام ولوعة الغرام ، وهي لوعة صادقة ، فقد هام حباً بفتاة يرمز لها تارة باسم ليلى وتارة ثانية باسم لمياء وتارة ثالثة باسم ظبية المقياس ، وفيها يقول :

يا ظبية المقياس ! هذا مدمعي	فردى ، وهذا روضٌ قلبي فارّتي ^(١)
إن كان لا يرضيك إلا شقوتي	فلقد بلغتُ مُنالِك منها فاقنعي
أنا منك بين صباية لا تنقضي	أيامها وغواية لم تُملع
لا تحسبي قولي خديعةً ماكري	إن الوفيّ بعهدده لم يخدع
إني لأقنع من هواك بنظرة	وأعدّها صلّة إذا لم تمنعي
هذي مناي وحبداً لو نلتها	عن طيب نفس فهى أكبر مُقنع

وهو يبتهل إلى صاحبه أن تنيله نظرة وعيناه ترسلان سيلاً من الدموع وقلبه يلتاع ويتعذب عذاب قلوب فرسان العرب السابقين الذين اکتوتوا بنيران الحب العذرى العفيف .

ولكن أما آن لفروسيته المحتدمة في أطواء نفسه أن تبرز في ميادين الحروب ؟ لقد أطلت سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وأخذت تسرع الخطى ، وإذا ربّةُ الشعر تقذف به في أتون الثورة التي هبت في جزيرة كريت ضد الدولة العثمانية ، وكانت قد أرسلت جيشاً لإخمادها واستنجدت بمصر ، فأوجدتها بكتيبة ، كان البارودى أحد ضباطها العظام . وما لمستها قدمه حتى هفا به الحنين إلى مصر ، فنظم قصيدته :
سرى البرقُ مصرياً فأرّقني وحدي وأذكرني ما لست أنساه من عهدٍ :

ومضى يتغنى بجزيرة الروضة إحدى معاهد حبه ومنّ بها من فانات لُبّه ، وقد برّح به الشوق تبريحاً شديداً . وتلك أول مرة ينسبجسُ فيها حنينه إلى وطنه ، وكأنما أرادت ربّةُ الشعر أن تبعده عنه ، حتى تتولد في نفسه مشاعره الوطنية ، وحتى يتفجر ينبوعها في قلبه فلا يجفّ أبداً . ونظر من حوالبه ، فرأى طبيعة « كريت » الجميلة ، فتغنى بغياضها ورياضها ومجالى فتونها . ولم يلبث أن أسهم في وقائع الحرب وزحوف كتائبها ، وهو يتقدّمُ فرسانها مجلباً ومتغنياً بفروسيته وفروسية رفاقه ، وعينه ترنو إلى مشاهد الطبيعة الجميلة ، وقلبه يهفو إلى مصر وطنه الحبيب ، وهو شاهر سيفه يشجع الفرسان على التزال والطعان رابطاً الجأش ثابت الجنان . وتنشب ذات ليلة معركة عنيفة تدور فيها على أهل « كريت » الدوائر ، فيتغنى نشوة وطرباً بالنصر :

أخذَ الكرى بمعاقد الأجنان وهفاً السرى بأعنة الفرسان^(١)
والليلُ منشورُ الذوائب ضاربٌ فوق المتالعِ والرَبى بِجِبران^(٢)

(١) الكرى : النزم . هفا : أسرع . السرى : السير ليلاً .

(٢) الذوائب : جميع ذؤابة وهي الشعر في مقدم الرأس . المتالع : التلال . الجران : أصله من البعير مقدم عنقه ، وضارب بجرانه : كناية عن تسلطه وسيطرته .

لا تستبين العينُ في ظلماتِهِ إلا اشتعالَ أسنَّةِ المرانِ^(١)
تسرى به ما بين لُجَّةِ فتنَةٍ تسمو غواربها على الطوفانِ^(٢)
ملثوا الفضاءَ فما يبين لناظِرٍ غيرَ التّماعِ البيضِ والخُرْصانِ^(٣)
فالبرُّ أكدرُ والسماءُ مريضةٌ والبحرُ أشكلُ والرماحُ دواني^(٤)
والخيلُ واقفةٌ على أرسائها لطرادٍ يوم كرهيةٍ ورهانِ^(٥)
وضعوا السلاحَ إلى الصباحِ وأقبلوا يتكلمون بألسنِ النيرانِ^(٦)
حتى إذا ما الصبحُ أسفَرَ وارتمتْ عيناىَ بين رُبِّي وبين مجانِ^(٧)
فإذا الجبالُ أسنَّةٌ وإذا الوها دُأعنةٌ والماءُ أحمرُ قاني^(٨)
وتوجَّستْ فُرطُ الركابِ ولم تكن لتهابَ فامتنعتْ على الأرسانِ^(٩)
فزعتْ فرجعتِ الحنينِ وإنما تحنَّانها شجنٌ من الأشجانِ
ذكرتْ مواردها بمصرَ وأين من ماءٍ بمصرَ منازلُ الرومانِ

والقصيدة من آياته الرائعة بما بدأها به من لمسات النوم وهو يمدُّ شبابه على أعين القوم ، والليل وهو يمدُّ جناحه عليهم وعلى الطبيعة من حولهم . وقد مضى يصور في حيوية زاخرة المعركة التي نشبت وكيف كانت الأسنة تلمع كالنجوم بل كالنيران في الظلمة المطبقة ، وكأنما تخلَّتْ موكب الليل الداجي لمواكب الجيش

(١) المران : شجر غصونه لدنة ، تتخذ منه الرماح .

(٢) الغوارب : جمع غارب وهو أعلى كل شيء .

(٣) البيض : السيوف . الخُرْصان : الدروع والرماح .

(٤) أكدر : منفر لما تنبئه الحرب من غبار . أشكل : يضرب لونه إلى الحمرة .

(٥) الأرسان : جمع رسن وهو اللجام . الطراد : المطاردة والمتابعة في الحرب . يوم الرهان :

يوم سبق ويريد يوم النصر .

(٦) يريد بألسن النيران ما تقذفه المدافع والبنادق .

(٧) أسفر : ظهر . الحجاني : جمع مجني وهو موضع جنى الثمار .

(٨) يريد بالأعنة الخيل . قاني : شديد الحمرة .

(٩) توجست : توقعت الشر . الفرط : الفرس السريعة في مقدمة الخيل . امتنعت على الأرسان :

حرزت وأبت الانقياد .

وشُعلِّه من السيوف والخوِّذ والدروع . وانعقد النَّقْع وسالت الدماء ، وظل السلاح ينوشُ القوم إلى الصباح . ويتلفت البارودي فيشهد روعة الطبيعة من حوله ، ويهوله اكتظاظ الجبال بالأسنة والوهاد بالأعنة واصطبغ المياه بحمرة قانية ، وينظر إلى الخليل ، فيراها تتميزُّ من الغيظ ، ممتنعة على اللجِّمِ حدةً ونشاطاً ، وصاهلة صهيلاً يشوبه أنين بل يشوبه ما يشوب نفس البارودي من الحنين إلى مصر حينئذ لا يزال يرجعه ساكبا الشجي والشجن في فؤاده .

وظلت الحرب سجالا حتى قُمعت الثورة ، فعاد البارودي إلى مصر ، ومنحته الدولة العثمانية وساماً من الدرجة الرابعة اعترافاً بحسن بلائه في قَمْعها . ولا يُعرفُ بالضبط تاريخ عودته ، غير أننا نظن ظناً أنه يسبق المؤتمر الذي انعقد بباريس في سنة ١٨٦٩ وقضى بمنح جزيرة كريت بعض الامتيازات . ولم يرجع بعد عودته إلى الجيش ، فقد عينه إسماعيل ياوراً بجمعيته ، ثم جعله كبيراً لياوران ابنه توفيق ، وما زال يشغل هذا المنصب حتى عاد لإسماعيل حوالي سنة ١٨٧٥ فجعله سكرتيراً خاصاً له ، وناط به في هذه الأثناء حمل رسالتين إلى الدولة العثمانية ، وفراه يعود إلى الجيش ثانية ، حتى سنة ١٨٧٧ .

ومن المحقق أنه ظل في هذه الفترة التي كان يعمل فيها بالقصر محتفظاً بكرامته . ولهذا مظهر واضح في شعره ، فإنه لم يضعه في خدمة إسماعيل يمدحه - مثل معاصريه من الشعراء - كلما دَعَا إلى ذلك داع من ذكرى لارتقائه أريكة مصر أو تهنته بعيد أو غير ذلك من دواع . وكل ما صنعه في هذا الجانب قصيدتان ، هُنَّاه في أولاهما بولاية مصر حين تعرَّف عليه في الآستانة سنة ١٨٦٣ وكان لا يزال موظفاً بوزارة الخارجية التركية . وعاد إلى ملحه بقصيدة ميمية ، ثم لزم الصمت . ومرجع ذلك من غير شك نفسيته القوية التي ردت عن أن يتخذ الشعر وسيلة ورُلْفَى للحاكم ، ولعله كان يشعر في قرارة نفسه أن شرف أصله وموهبته الشعرية يفوقان إمارة إسماعيل .

على كل حال لم يتحول البارودي طوال عصر إسماعيل إلى شاعر من شعراء البلاط ، وقد ظل في أثناء عمله بالقصر يتغنى على قيثارته بالفخر والحب والخمر ، شأنه قبل اشتراكه في إخمداد ثورة كريت . وحين نغم النظر في هذا الغناء نحسُّ

بضرب من التغير في طبيعته ، وكان أزمة أملت بنفس الشاعر ، وهو يعلن بدء هذه الأزمة إعلاناً صريحاً ، قائلاً إنها انتابته وهو في التاسعة والعشرين من عمره أى في سنة ١٨٦٨ وكانما حاول أن يستر عنا بواعثها الحقيقية ، إذ ردّها إلى ظهور الشيب واشتعاله في رأسه ، يقول :

نزعْتُ عن الصِّبا وعصيت نفسي ودافعتُ العسويةَ بالتأسي^(١)
ومن يك جاوز العشرين تترى وأردفها بأربعةٍ وخمسين^(٢)
فقد سَفَرْتُ لعينيه الليالي وبانَ له الهدى من بعدَ لبسٍ^(٣)
نظرتُ إلى المرآة فكشَّفتُ لى قناعاً لاح فيه قَتيرُ رأسي^(٤)

ولكن أحقا أقلع عن الصباة واللهم والخمر ؟ إن ديوانه يحتفظ بأشعار نظمها في تلك الفترة تحتفظ بهذه الموضوعات وما اتصل بها قديماً من الفخر ووصف الطبيعة . وإذن فلنبحث عن علة أخرى لما أخذ يلمّ بنفسه من ضيق ، وإذا رجعنا إلى الديوان وجدناه يقيم حينئذ بحلوان مدة للملازمة الحمامات ، فهل ما اعتراه من هذا الضيق يُرَدُّ إلى مرض كسا نفسه بشيء من الظلمة ؟ إن الديوان يتلو هذا الخبر بقصيدة مفعمة بالحب والحماسة نظمها في إحدى فائتات حلوان اللأني تصبّين قلبه . فتلك العلة إذن لا تفسر الموقف ، وفي رأينا أن ذلك الضيق يرجع إلى إحساسه العميق بفساد حاشية إسماعيل وفساد إسماعيل نفسه وما أخذ يُثقل به ظهر البلاد من أعباء الديون . وآية ذلك الرأي ، الذي نزعمه ، ما يمتلي به شعره حينئذ من شكوى ممضة ، يتبرم فيها بالناس وأخلاقهم ، وما يسارعون إليه من الشر البشع وما يضمرون من الخبث والمكر ومن الخيانة والغدر ، وهو يطيل في هذه المعاني إطالة لا نعهدها عنده قبل هذه الفترة من حياته ، من مثل قوله حاجياً :

وصاحبِ كهُمومِ النفسِ معترضٍ ما بين ترقوةٍ منى وأحشاء

(١) التأسي : التزى والتسلى .

(٢) تترى : متواترة . أردفها : أتبعها .

(٣) سَفَرْتُ : ظهرت . لبس : غموض .

(٤) المرآة : المرآة ، خففها للشعر . القناع : غطاء الرأس ، وأراد به الشعر . القتير : أوائل الشيب .

لا يفعل السوء إلا بعد مقدرة ولا يكفكف إلا بعد إيذاء
عاشرته حِقْبَةً من غير سابقة فكان أقتل من داء لِحَوْبَاه
لا بارك الله فيه حيث كان ، ولا جزاه عن فعله إلا بأسوا
ويتسرب كثير من سواد هذه الشكوى ممن يحيطون به إلى غرامياته وخمرياته .
ومن غير شك كان كثير منهم يَنفَس عليه ارتفاع نجمه ، ولكن ذلك لم يكن
العلة الحقيقية التي أشاعت في نفسه رَنَّة من البرم والضيق الشديد ، فإن كل ذلك
إنما كان ذَنَبَ الحَيَّة وحواشيها التي ينبغي أن لا تُقَطَّع هي فحسب ، بل ينبغي
أن تقطع رأسها حتى لا تقوم لها قائمة . ولم تكن الرأس إلا إسماعيل الذي فسح
لهذه الحاشية الفاسدة ، وإذن لإسماعيل هو العلة الحقيقية لأزمته النفسية ، إذ مضى
يستدين من الأوربيين ، حتى بلغت ديونه في سنة ١٨٦٨ نحو خمسة وعشرين
مليوناً من الجنيهات ، وحتى بدا في الأفق أن كارثة فظيعة لا بد أن تحيق بالبلاد ،
إذا استمر ينفق القناطير المقتطرة من الذهب والفضة على قصوره وملاذه . ومعنى
ذلك أن أزمته النفسية لم تكن ترجع إلى أسباب شخصية ، إنما كانت ترجع إلى
أسباب قومية ، وإلى وطنه الذي استشعر في قوة حبه منذ مقامه في كريت ، فضى
يتغنى به . وعاد فوجده على حافة خطر تكاد تُودى به ، وحاشية إسماعيل من
حوله وعلى رأسها وزيره إسماعيل صديق تسول له أن يمضي في استنزاف أموال الشعب ،
مُنزلة به ما لا يُطاق من العسف والظلم . حيثئذ ثور نفس البارودي ثورة عارمة
سجلها في قصيدته العينية التي يستهلها بقوله :

متى أنت عن أحموقة الغنى نازعُ وفي الشيب للنفس الأبية وازعُ
ألا إن في تسع وعشرين ججةً لكل أخى لهوٍ عن اللهو رادع^(١)
فحتماً تُصبيك الغواني بديلها وتهفو بليتيك الحمام السواجع^(٢)
ويمضى البارودي فيستنهض همة قومه ليقضوا قضاء مبرماً على إسماعيل وحكمه
الفاسد ، ويأسى أن يجد في وطنه نفوساً ضعيفة ترضى الذل والهوان ولا ثور على

(١) حجة : سنة .

(٢) تصييك : تفتنك . تهفو : تميل وتحرك . اليتان : صفحتا العنق .

البعي والعدوان ، قد ألهأها عن واجبها الوطني ما يرمى إليها به الحاكم المستبد من ألقاب ورتب لا تزين بل تشين ، لأنهم باعوا بها وطنهم وحقوقه ، صفقة خاسرة باثرة . وما يلبث أن يهيب بقومه أن يضرموها ثورة لا تُبقي ولا تَدَر ، ثورة تأتي على إسماعيل وكل من دار في مداره ، وإنه ليصبح :

فيا قومُ هُبُوا إنما العمرُ فرصةٌ وفي الدهرِ طُرُقُ جَمَّةٍ ومنافعُ
أصبراً على مَسِّ الهوانِ وأنتمُ عديدُ الحصى ؟ إني إلى الله راجع
وكيف ترون الذلَّ داراً إقامةً وذلك فَضْلُ اللهِ في الأرضِ واسع
أرى أروساً قد أينعتُ لحصادِها فأين- ولا أين- السيوفُ القواطعُ^(١)

والأبيات تفيض بالاستثارة حتى تندلع هذه الثورة التي تُطيح برأس إسماعيل ورعوس أصحابه من أمثال إسماعيل صديق . غير أن البارودي يتلفت حوله فلا يجد سميعاً ولا مجيباً :

أهبتُ ، فعاد الصَّوتُ لم يقض حاجةً إلى ولباني الصَّدَى وهو طائع^(٢)

فهو قد صاح في قومه صيحة قوية عاصفة ، وكأنما كانت صيحةً في واد . وهذا هو سر أزمته النفسية ، فقد ظل إسماعيل جاثماً على صدر مصر ، وظل يستدين ويستريد من أغلال الدين الأجنبي ، والبارودي يقلق ويزداد قلقاً على مصير بلاده . ونزها السيد جمال الدين الأفغاني في سنة ١٨٧١ وحمل على إسماعيل وسياسته الخرقاء حملات شعواء ، ولاذ به كثيرون كان البارودي في مقدمتهم . وطربت ربةُ الشعر لما كان يحس من مشاعر قومه ، ولما أخذ يتعمقه من السخط على حكاهم المستبدين ولما انتابه من الحزن لوطنه . ويظهر أن اليأس من القضاء على إسماعيل وبطانته الفاسدة بلغ منه في هذه الفترة مبلغاً عظيماً ، ومن ثم نراه حنقاً على الدهر والناس ، ضيقاً بأذنان القصر وشاياتهم وسعاياتهم ، وجعله ذلك

(١) أروساً : جمع رأس . أينعت : فضجت وحن حصادها وقطانها . لا أين : كلمة معترضة يدل بها على أساء في أن ذلك لا يقع .

(٢) أهبت : ناديت وصحت . لباني : أجايبني . الصدى : صدى الصوت .

حذرا ، يكثر من مداراتهم ، حتى لا يطير به إسماعيل طيرة بطيئاً سقوطها ، يقول :
 مداراةُ الرجالِ أخفُ وطْأُ على الإنسانِ من حَرْبِ الفسادِ
 وما كان العِداءُ يخفُّ لولا أذى السلطانِ أو خوفُ المعادِ
 ويقول :

اكنمُ ضميرك من عدوك جاهداً وحذارِ لا تَطْلُعْ عليه رفيقاً
 فلربما انقلبَ الصديقُ معادياً ولربما رجع العدو صديقاً

وقد مضى يفرق يأسه وقلقه في وصف الطبيعة والحب والخمر والحماسة منتقلا بين معاهد حبه وطوه القديمة في الروضة ومعاهده الجديدة في حلوان والبحيزة، غير أن رنةً جديدة من ذم الناس والشكوى من الزمان انسكبت— كما قدمنا— في موسيقى شعره، وامتزجت بغنائه وألحانه . وعن طريقها نستطيع أن نَفْرُق بين كثير مما نظمه في تلك الفترة وبين نظيره في الفترة السابقة قبل اشتراكه في معارك كريت ، فبينما تسرى البهجة في قصائده ومقطوعاته الأولى وخاصة في خمرياته إذا بقصائده ومقطوعاته الثانية يَشِيع فيها غير قليل من الشكوى والكآبة . وعلى هذا القياس نضع في الفترة الأولى مثل قصيدته :

أديرِ الكَأْسَ يا نديمُ وهاتِ واسقنيها على جبين الغداةِ

وقصيدته التي عارض بها أبا نواس: « تلاهيت إلا ما يُجنّ ضمير » وقصيدته :
 « حبذا الرَّاحُ في أوانِ البهارِ » وقصيدته في ظبية المقياس: « أترى الحمام ينوح من طرب معي » وقصيدته: « لوى جيده وانصرف » ونظن ظناً أن قصيدته: « هل في الخلاعة والصبأ من باس » من قصائد تلك الفترة . ونضع في الفترة الثانية قصيدته :

غادِ النَّدىَ بالجيزةِ الفَيْحاءِ واحذُ الصُّبوحَ بنعمةِ الوَرْقاءِ^(١)

(١) غاد : باكر . ومغادة الندى كناية عن التبكير . الفيحاء : الواحة . احد من الهداء وهو : التفتي للإبل في سيرها . الصبوح : الخمر تشرب في الصباح . الورقاء : الحمامة يشيع السواد في لونها الأبيض .

وهي تضحج بالشكوى من الزمان والحساد وإخوان السوء . وتتصل منها بسبب قصيدته : « سلكوا عن فؤادي قبل شدّ الركائب » وهي في فائتات حلوان ومعروف أنه لم يتصبُ إليهن قبل هذه الفترة . ويجرى في مسارب نغمهما قصيدته : « املاً القدح » وقصيدته : « أرى نفحة دلّت على كبدى الوجدا » وقصيدته : « لهُوى الكواعب ذمّة لا تُخفّر » وقصيدته : « رَفّ الندى وتنفس النّوار » . ونستطيع أن نضيف إلى هذه الفترة قصيدته : « سلّ الجيزة الفيحاء عن هرمى مصر » إذ هي الفترة التي شغقت مصر فيها قلبه حبا ، فطبيعى أن يتغنّى حينئذ بأبجاده القديمة ، وهي تُعدّ الأمّ الروم لما نظمه شوقى فيما بعد من فرعونياته . ونضع أيضاً في هذه الفترة قصيدته : « ذهب الصبا وتولت الأيام » وقصيدته : « ظن الظنون فبات غير موسدٍ » لما ذكره فيها من بلائه في الحرب ، وكأنه يشير إلى اشتراكه في وقائع كريت .

وعلى هذا النحو يمكن أن نعين زمن كثير من حماسيات الديوان وخمرياتة وغزلياته ومتى نُظمت أقبَل سنة ١٨٦٨ أو بعدها ، فقد كانت نفس البارودى قبل هذه السنة أشبه ما تكون بالينبوع الصافي العذب ، فإذا هي تخطط بالقصر ، فيهب عليها غبارها ، ويعلو صفحتها كثير من الكدر ، وتغمرها ظلمة مخيفة ويصيح البارودى صيحة عالية مدوية ، يريد أن يقوِّض القصر على صاحبه وأذنا به ، غير أنه لا يجد لصيحته أذن صدق ، فتأسى نفسه لوطنه ، ويعود إلى لُوه وجهه وحماسته مرسلًا كثيراً من الأناث والزفرات .

وعافت نفسه حياة القصر ، فاتخذ من الوسائل ما جعله يُردّ إلى الجيش ، غير أن الظلمة لم تنقش عن نفسه ، إذا أخذت تظهر في الأفق بوضوح بوادر الكارثة التي أخذ إسماعيل يدفع إليها البلاد ، لا بما أثقل ظهرها من أعباء الديون فحسب ، بل أيضا بما فسح للدول الأجنبية من التدخل السافر في شئوننا ، فإذا هو يرتضى إنشاء صندوق للدين يديره مندوبون أجانب ، كما يرتضى فرض الرقابة الأجنبية على شؤون البلاد المالية ، ويتولاها رقيب إنجليزي وآخر فرنسى . وكأنما

أرادت ربة الشعر أن تمحص الحرب جوهر البارودي بأكثر مما محصته في كريت ،
فما وافى شهر إبريل من سنة ١٨٧٧ حتى أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية
وتبعتها رومانيا وبلغاريا والصرب والجبل الأسود ، فاستنجدت تركيا بمصر ، وأنجدتها
مرسلة إليها بحملة ضخمة كان البارودي أحد قوادها . ونزلت الحملة في « وارنه »
أحد ثغور البحر الأسود ، ومضى جنودها وضباطها يحاربون في أوكرانيا مستميتين
ومستبسلين ، وظلوا نحو عام أبلوا فيه بلاء حسناً ، غير أن الهزيمة حاقت
بالترك ، فاضطروا إلى عقد معاهدة سان استفانو المشهورة في مارس من سنة ١٨٧٨
وكانت قد طارت الأنباء بما أبداه البارودي في تلك الحرب من شجاعة وبسالة
نادرة ، فخلع عليه الترك رتبة أمير اللواء ومنحوه نيشان الشرف وساماً من
الدرجة الثالثة .

وبينما كان يقتحم البارودي ميادين هذه الحرب ومعاركها الدامية كان ينازعه الشوق
إلى مصر التي ارتسمت في سويداء فؤاده وملك حبه شغاف قلبه . وقد صور ذلك في
قصائد ثلاث ، استهل إحداها بذكرياته البهيجة لمعاهد حبه في « روضة المقياس »
أو جزيرة الروضة ، وأفاض في تصوير مشاعره ، وأنه لولا الحرب لطار إلى وطنه ،
وأنه لذلك يكافح خصمين : شوقه وعدوه الذي يقاتله ، يقول :

ولو كنتُ مطلقَ العنانِ لما ثنتُ هوائى الفيافي والبحارُ الطوافحُ
ولكننى في جَحْفَلٍ ليس دونه برآحٌ لذى عُذْرٍ ولا عنه بارحٌ^(١)
يكافحني شوقى إذا الليل جَنَى وأغدو على جمع العدا فأكافحُ^(٢)
خصيان : هذا بالفؤاد مخيمٌ وذلك عن مرعى القذيفة نازح^(٣)

(١) الجحفل : الجيش الضخم . البراح : الفضاء . بارح : زائل .

(٢) جنى : سترنى .

(٣) مخيم : مقيم . نازح : بعيد .

ومضى يدعو لروضة المقياس دعاء رقيقاً مؤثراً ، ثم أخذ يصف الحرب بريشته المبدعة ، وكأنه لا ينظم قصيدة وإنما يرسم لوحة رائعة . ومرّ به عيد فطر هناك ، وهو لا يدري لما كان فيه من مشاغل القتال ، فلما ذكره له ذاكر جاشت نفسه بقصيدة بدیعة استهلها بقوله :

أَرَكَ الْجَمِيَّ شَوْقِي إِلَيْكَ شَدِيدٌ وَصَبْرِي وَنَوِي فِي هَوَاكَ شَرِيدٌ (١)

واتسع في وصف حنينه إلى مصر ، وشكا شكوى مرة من الغربية ، حتى إذا استوفى ذلك نقل إلى قصيدته شخوص من كان يحاربهم بسياهم وصورهم نقلاً دقيقاً . وثلاثة القصائد قلادة من قلائد البارودي النفيسة تتحرق فيها أحشاؤه على الوطن وخلائته فيه تحرقاً ، مثبتاً صورة الحرب الروسية التركية ، ومتحدثاً عن شيمه العربية النبيلة ، وفي تضاعيف ذلك يقول :

وَبِي ظَمًا لَمْ يَبْلُغِ انْمَاءَ رِيَّةٍ وَفِي النَّفْسِ أَمْرٌ لَيْسَ يُذَكِّرُهُ الْجَهْدُ (٢)
أَوْدٌ وَمَا وَدُّ أَمْرِي نَافِعًا لَهُ وَإِنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ جَدٌ (٣)
وَمَنْ كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِي تَصَدَّعَتْ لِعِزَّتِهِ الدُّنْيَا وَذَلَّتْ لَهُ الأُسْدُ (٤)

والبيت الأول صريح في أن البارودي يطمح إلى غاية من المجد لا تكاد تنال ، لكنها هي التي تنقع ما في قلبه من ظمأ وأنه لذلك لا يزال يمني نفسه بدركها ، مع ما يحس من إسرافه في الطمع ، غير أن من كانت همته بعيدة مثله امتثلت الدنيا لعزته وعنت له الوجوه ، وحقق كل ما ابتغاه . ونحار فيما ينبغي البارودي ،

(١) الأراك : شجر . شريد : نافر .

(٢) الري : الامتلاء بالماء ، يقول إن ظمأه لا يرويه الماء لأنه ظمأ إلى تحقيق غاية من المجد لا تنال وإن غايته تلك أبعد من سعيه .

(٣) الجلد : الحظ .

(٤) تصدعت : دانت وذلت .

غير أننا إذا قرنا هذه الأبيات إلى صرخته في سنة ١٨٦٨ ضد إسماعيل عرفنا مبتغاه ، وأنه يبتغي ولاية مصر ، حتى يخرجها من دائرة الظلام الذى غمرها ، ويحقق لها مجدها السياسى كما حقق لها بشعره مجدها الأدبى .

٣

على جناح الثورة

عاد البارودى إلى مصر فى أبريل سنة ١٨٧٨ فرُقّي إلى رتبة اللواء وعيّن مديراً للشرقية ، وسرعان ما نُقل محافظاً للقاهرة ، وفى هذه الأثناء كان إسماعيل يركع على قدميه أمام الإنجليز والفرنسيين ، مدعناً لتدخلهم فى شئون الحكم إذعاناً جعله يؤلف الوزارة المختلطة فى شهر أغسطس من تلك السنة ، بحيث أصبحت وزارة المالية بيد وزير إنجليزى ووزارة الأشغال بيد وزير فرنسى ، أما رئاسة الوزارة أو مجلس النظار فأعطيت لنوبار عميل الأجانب وبذلك أصبحت مقاليد الحكم فى البلاد بيد الوزيرين الأوربيين . وتحرك الشعب حركة قوية بقيادة صحافته يريد أن يُلْتقى عن ظهره أعباء الظلم التى أخذه بها إسماعيل والأجانب جميعاً ، وظهرت حركة فى الجيش بسبب إحالة كثيرين منه إلى المعاش ، فخاف توفيق بن إسماعيل نوبار فى رئاسة مجلس النظار . غير أن الوزيرين الأجنبيين ظلا كما هما دون تغيير ، وسوّلا لتوفيق وأبيه أن يلغيا مجلس شورى النواب ، فلم تهدأ النفوس بل ازدادت حدة على قوى الظلم ، وتكونت جمعية وطنية اضطرت إسماعيل إلى وضع نظام دستورى سليم واضطلاع وزارة وطنية بشئون الحكم لا يكون بينها أجنبي دخيل وتكون مسئولة أمام مجلس شورى النواب . وأذعن تحت ضغط الشعب ، ونهض محمد شريف بتأليف وزارة وطنية ، وأخذ يضع قواعد الدستور الجديد .

وعلى هذا النحو أخذ الشعب يثور على إسماعيل الذى يوشك أن يطوّح به فى هوة لا قرار لها ، غير أنه لم يسرع إلى إعلان ثورته عليه بحيث يبطش به وبأعوانه

بطشاً ، ويعصف بهم عصفاً لا تقوم لهم بعده قائمة . ولكن أين البارودي الذى أعدته ربّة الشعر وظلت تغذيه بمشاعر الفروسية والوطنية ليكون صوت مصر فى هذه المحنة ؟ وهل يتعقد لسانه وأمه يحلّ بها هذا الضيم بل هذا الهوان وهو الشاعر المتوثب الذى يملك عليه وطنه لُبّه وقلبه والذى يحس فى أعماق نفسه أن مصر استخلصته فى تلك المحنة العصبية لنفسها كى يردّ عنها ما أطبق عليها من الأرزاء والأهوال ، وليحقق ما تصبو إليه من أمجاد تتلاءم وتاريخها العريق ؟ إنه لم يلبث أن ثار ثورة عنيفة ، فإذا هو يصرخ فى أمته صرخة عاتية عاصفة ، يريد أن يحطم كل ما كُتبت به من أغلال وقيد ثقيلة، على نحو ما نقرأ فى قصيدته اللامية :

قَلَدْتُ جِيدَ المعَالَى حِلْيَةَ الغَزَلِ وقلْتُ فى الجَدِّ ما أغْنى عن الهَزَلِ

وقد مضى يعلن أنه لن يخضع منذ اليوم لسحر الأعين النجل ولا للهو والطرب ، فقد وهب نفسه لطلاب المجد يريد أن يحلّق فوق قمم السماء ، وإنه ليستشير مَنْ حوله ويستنهض همهم ، لكى يقتحموا معه الأجاج كالعواصف الجاحمة والأعاصير الهائجة ، ويحذروهم من ذوى النفوس المريضة من حولهم أن يبوحوا لهم بأسرارهم وما عقدوا عليه عزمهم ، ولا يلبث أن يرسل صوته مجاجلا بالثورة ، صائحاً :

حَلَبْتُ أَشْطَرَ هذا الدهرِ تجرِبَةً وذُقْتُ ما فيه من صابٍ ومن عَسَلٍ^(١)
 فما وجدتُ على الأيامِ باقيةً أشهى إلى النفس من حرية العمل
 لكننا غرضٌ للشرِّ فى زمنٍ أهلُ العقولِ به فى طاعة الخَمَلِ^(٢)
 قامتُ به من رجالِ السوءِ طائفةٌ أذهى على النفس من بُؤسٍ على ثَكَلِ^(٣)
 من كلِّ وُعْدٍ يكاد الدَّسْتُ يَدْفَعُهُ بُغْضاً وَيَلْفِظُهُ الديوانُ من مَلَلِ^(٤)

(١) الأشطر : جمع شطر وهو خلف الناقة ، وحلبت أشطر الدهر : كناية عن اتساع التجربة .
 الصاب : عصارة شجر مر . (٢) الخمل : جمع خامل وهو الساقط الذى لا نباهة له ولا شرف .
 (٣) الثكل : فقدان الولد . (٤) التست : مجلس الحكم وكذلك الديوان .

ذَلَّتْ بِهِمْ مِصْرَ بَعْدَ الْعِزِّ وَاضْطَرَبَتْ قَوَاعِدُ الْمَلِكِ حَتَّى ظَلَّ فِي خَلَلٍ
وَأَصْبَحَتْ دَوْلَةُ الْفَسْطَاطِ خَاضِعَةً بَعْدَ الْإِبَاءِ وَكَانَتْ زَهْرَةَ الدُّوَلِ

وهو في هذه القطعة يصور حكام مصر الذين استذلوها ، وإن كراسيهم التي
اقتعدوها لتبراً منهم ومن دنس نفوسهم ، بل لكأنما تريد أن تركلهم ركلا ، لما نكبوا
به البلاد من التدخل الأجنبي ومن الظلم والفساد . ويحاول بكل ما يستطيع أن يحرك
الامة لكرامتها وحربتها ، يقول :

بَشَسَ الْعَشِيرُ وَبَشَسَتْ مِصْرُ مِنْ بَلَدٍ أَضَحَتْ مُنَاخاً لِأَهْلِ الزُّورِ وَالْخَطَلِ^(١)
أَرْضٌ تَأْتَلُ فِيهَا الظُّلْمُ وَانْقَذَفَتْ صَوَاعِقُ الْغَدْرِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ^(٢)
وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي عَمِيَاءٍ مَظْلَمَةٍ لَمْ يَخْطُ فِيهَا امْرُؤٌ إِلَّا عَلَى زَلَلٍ

وهو لا يهجو مصر وكيف يهجوها وهي قرة عينه ؟ إنما يريد أن يصور
ما أصابها في كبرياتها وعزتها وفي حكمها وسياستها ، إذ تسلط عليها حكام
مستبدون ، ما زالوا ينسحون عليها بالظلم ، حتى غشيها الظلام من كل جانب ،
وحتى أصبح الناس يائسين من أن يخرجوا من هذه الظلمة الغامرة . والبارودي إنما
يبتغي بهذا التصوير أن يدفع الشعب إلى قهر ظالميه والاقتصاص منهم ، وقد مضى
يهزؤه هزاً قوياً ، قائلا :

لَمْ أَدْرِ مَا حَلَّ بِالْأَبْطَالِ مِنْ خَوَرٍ بَعْدَ الْمِرَاسِ وَبِالْأَسْيَافِ مِنْ قَلَلِ^(٣)
أَصْوَحَتْ شَجَرَاتُ الْمَجْدِ أَمْ نَضِبَتْ غُدْرُ الْحَمِيَّةِ حَتَّى لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ^(٤)
لَا يَلْفَعُونَ يَدَا عَنْهُمْ وَلَوْ بَلَغَتْ مَسَّ الْعَفَافَةِ مِنْ جِبِينٍ وَمِنْ خَزَلِ^(٥)

(١) الخطل : الحق والمطلق الفاسد .

(٢) الخور : الجبن . القلل : انقلام حد

السيف .

(٣) تأتل : تأصل .

(٤) صوحت : يست . غدر : جمع

غدير . (٥) خزل : انخزال .

خافوا المنية فاحتالوا وما علموا
 هيهات يلقى الفتي أمنا يلدُّ به
 فما لكم لا تعاف الضيم أنفسكم
 وتلك مصر التي أفنى الجلاذ بها
 قوم أقرؤا عماد الحق وامتلكوا
 أخنى الزمان على فرسانها فغدت
 أن المنية لا ترتد بالحيل
 ما لم يخض نحوه بحرًا من الوهل^(١)
 ولا تنزل غواشيكم من الكسل^(٢)
 لقيف أسلافكم في الأعصر الأول
 أزمت الخلق من حاف ومنتعل
 من بعد منعتها مطروقة السبل^(٣)

والبارودي إنما يقصد بهذه الأبيات أن يحتمس الشعب ويشعل فيه لبيب كرامته، حتى يضطرم غضبه على ظالميه، وهو يضع له نصب بصره بطولانه القديمة وماساس به الشعوب من سياسة عادلة يوم أن كان يظلمها بسلطانه، حتى يهبج لحقوقه المهلدة، ويحطم سلاسل الظلم التي أحكمت حلقاتها من حوله. وم يخاف الشعب وأفراده؟ أيخافون الموت، واقتحام ميادينه هو السبل الصحيح للحياة الحرة الكريمة. وما بلغ البارودي هذا الموضع من قصيدته حتى طفح به الكيل، وحتى هتف بالشعب طالباً إليه أن يثور بقيادته ثورة ترد إليه حقوقه المسلوبة:

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزِعوا
 وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة
 ماضى البصيرة غلاباً إذا اشتبهت
 إن قال برٌّ وإن ناداه منتصرٌ
 شكالة الرهث فالدنيا مع العجل^(٤)
 يكون ردهاً لكم في الحادث الجلل^(٥)
 مسالك الرأي صاد الباز بالحجل^(٦)
 لبي وإن هم لم يرجع بلا نفل^(٧)

(١) الوهل : الفزع .

(٢) الضيم : الظلم . الفواشى : ما يغشى الإنسان ويتأبه .

(٣) أخنى على : أهلك .

(٤) الشكالة : عقاب الدابة الذي تمقل به وتقيد . الريث : الإبطاء .

(٥) ردها : هزأ . الجلل : الخطير والعظيم .

(٦) الباز : الصقر . الحجل : بقاث الطير وضماؤها .

(٧) النفل : الفئمة .

وطالبوا بحقوقٍ أصبحتْ غَرَضاً لكل منتزِعٍ سَهْماً ومُخْتَلٍ^(١)
حتى تعود سماء الأمن ضاحيةً ويرقُلُ العدلُ في ضافٍ من الحُلُلِ^(٢)

ولم يلبَّ الشعبَ حينئذ البارودي ولا يبادر إلى قهر ظالميه بالعنف ، بل مضى يأخذهم باللين رغم ما يحفّ به من المكاره ويحدق به من الأخطار . ولم ييأس البارودي من ثورة الشعب ، غير أنه رأى أن يصانع أصحاب السلطان ، حتى تحين الفرصة ، وحتى لا تسوء العاقبة . وكان فيه حذر شديد ، يدل عليه الدلالة أنه ظل بعد صرخته الأولى نحو عشر سنوات لا يرفع صوته ، وجمع عزيمته وصرخ هذه الصرخة الثانية ، حتى إذا لم يجد لها صدًى في نفوس من حوله مضى يتحفظ ويحتاط حتى لا تنكشف طويته . وبينما كان محمد شريف رئيس مجلس النظار يحاول أن يضع للبلاد دستوراً قويمًا يرد عليها كرامتها وحقوقها المهضومة فارضاً على الوزارة مسئوليتها عن كل تصرف مهما دقّ أمام مجلس شورى النواب إذا بالحكومتين الإنجليزية والفرنسية تكيدان لإسماعيل عند الدولة العثمانية ، لإقصائه الوزيرين الأجنيين عن الوزارة وإسناده رياستها لمحمد شريف الوطني الغيور ، وما زالتا تحثان العثمانيين على خلعهم عن ولاية مصر ، حتى خلعه في يونية سنة ١٨٧٩ وولوا مكانه ابنه توفيقاً ، فقدم له محمد شريف استقالته حسب التقاليد المتبعة ، وعهد إليه من جديد بتشكيل الوزارة فأدخل فيها معه محمود سامي البارودي ناظراً (وزيراً) للمعارف والأوقاف . ونرى البارودي يجيئ توفيقاً بولايته على مصر ، وهي في الظاهر تحية وتهنئة ، وفي الحقيقة دعوة صريحة لتوفيق كي يصدر الدستور الذي أعده محمد شريف ويدعوا لانعقاد مجلس شورى النواب ، ويُسقط عن ظهر الشعب أعباء الظلم وأوزاره ، وصاغ ذلك صياغة تدل على أنه أصبح أمراً مقضياً لا مفر منه يقول :

سَنَ المشورةَ وهيَ أكرمُ خُطَّةٍ يَجْرِي عليها كلُّ راعٍ مرشدٍ^(٣)

(١) منتزِع السهم : الراي به . المختل : الذي يصيب ما يريد بالمكر .

(٢) ضاحية : مصحبة مشرقة . يرقُل : يمشى زهوا واختيالاً . ضاف : سابع .

(٣) سن المشورة : جعلها طريقه إلى الحكم ، وهو يريد بها للمستور ومجلس شورى النواب .

هِيَ عِصْمَةٌ الدِّينِ الَّتِي أَوْحَى بِهَا
فَمَنْ اسْتَعَانَ بِهَا تَأَيَّدَ مُلْكُهُ
أَمْرَانِ مَا اجْتَمَعَا لِقَائِدِ أُمَّةٍ
جَمْعٌ يَكُونُ الْأَمْرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ
هِيَ هَاتِ بِحَيِّ الْمَلِكِ دُونَ مَشُورَةٍ
فَالسِّيفُ لَا يَمْضِي بَدُونَ رُويَّةٍ
وَلَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ أَفَادَ بَعْدْلَهُ
أَطْلَقْتَ كُلَّ مَقِيدٍ وَحَلَلْتَ كَ
وَتَمَتَّعْتَ بِالْعَدْلِ مِنْكَ رَعِيَّةٌ
رَبُّ الْعِبَادِ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ (١)
وَمَنْ اسْتَهَانَ بِأَمْرِهَا لَمْ يَرْشُدْ
إِلَّا جَنَىٰ بِهَمَا ثَمَارَ السُّوْدُدِ (٢)
سُورَىٰ وَجُنْدُ الْمَعْدُوِّ بِمَرْصِدِ (٣)
وَيَعَزُّ رُكْنَ الْمَجْدِ مَا لَمْ يُعْمَدِ (٤)
وَالرَّأْيَ لَا يَمْضِي بِغَيْرِ مَهْنَدٍ (٥)
حُرِّيَّةَ الْأَخْلَاقِ بَعْدَ تَعْبِيدِ
لِ مَعْتَدٍ وَجَمَعْتَ كُلَّ مَبْدِدِ
كَانَتْ فَرِيْسَةً كُلِّ بَاغٍ مُعْتَدِ

وكان البارودي يريد أن يأخذ على توفيق عهداً للأمة أن يصدر دستورها ويجمع مجلس نوابها ويترك لها تدبير شئونها بنفسها بحيث تصبح حارسة لمصلحتها وصاحبة السيادة في أرضها ، وتصبح جميع أجهزة الدولة التنفيذية مسؤولة أمامها أو بعبارة أدق أمام نوابها الذين اختارنهم وكلاء لها ، وهو يجمع ذلك في كلمة المشورة ، فالحكم ينبغي أن يكون شورياً ، على الصورة التي وضعها محمد شريف لدستور الأمة . ونراه يدعم دعوته لتوفيق بالدين ، وما أوحى به العناية الربانية للرسول الكريم من التمسك بأهداب الشورى في مثل قوله تعالى : (وشاورهم في الأمر) وقوله جل شأنه : (وأمرهم شورى بينهم) : ومعنى ذلك أن الحكومة التي يرتضيها الدين الخفيف لأتباعه يجب أن تكون شورية لا استبدادية شأن حكومة إسماعيل وسابقه من الأسرة العلوية . ويعلن البارودي لتوفيق أنه إن نكص على عقبيه فلم يُمضِ حكمه شورياً لم يرشد وضل عن سواء السبيل . وينصحه أن يُعنى بالهش وعُدته وعُدته ، فهو درع الأمة الواقي الذي يحميها ويصون استقلالها ويسحق أعداءها

(١) عصمة : وقاية . (٢) السؤدد : السيادة والمجد .

(٣) المرصد : موضع الارتقاب . (٤) يعمد : يقام له عماد يعتمد عليه .

(٥) المهند : السيف . لا يَمْضِي : لا يقطع .

سحقاً . ويجعله كأنه أشاع العدل المقدس ، فلم يعد هناك ظلم ولا سخرة ولا سادة وعبيد .

ولا يلبث هذا النداء بل هذا الحلم أن يتبدد ، إذ يضع توفيق يده في يد أعداء البلاد: الإنجليز والفرنسيين فلا يبرم أمراً إلا بوحى منهم ، ويسوؤون له أن لا يُصدر الدستور ولا يدعو مجلس شورى النواب ، فيستقبل محمد شريف . ويمضى توفيق في حكم البلاد دون دستور ولا هيئة نيابية ، ويعيد الرقابة الثنائية ، ويجعل للرقيبين الإنجليزي والفرنسي حق حضور جلسات مجلس النظار ، وبذلك يصبحان ناظرين أو وزيرين مقننين . ويحاول أن يمسك بزمام مجلس النظار ، فيجعله برياسته ، ثم يسلمه إلى رياض في ٢١ من سبتمبر سنة ١٨٧٩ ومن عجب أن نرى البارودي الثائر لا ينفذ يده من الوزارة بعد استقالة محمد شريف ، فقد ظل ناظراً أو وزيراً للأوقاف ، وتوفيق ورياض يشددان الخناق على الأمة ويطلقان العنان لأعدائها من الأجانب . ويظهر أنه رضى بذلك ضرباً من المصانعة ، حتى لا تتضح نواياه الحقيقية ، وحتى تظل مستورة إلى حين ، وقد مضى ينهض بإصلاحات كثيرة في وزارته ، وكان من أهم مانهض به أن أمر بجمع الكتب الموقوفة المتفرقة في المساجد ووضعها في مكان واحد ، وبذلك حفظ هذا التراث القومي من الضياع . وأيضاً فإنه أمر بجمع الآثار العربية ووضعها في مسجد الحاكم استعداداً لبناء دار خاصة بها عند سنوح الفرصة .

وبينما كان البارودي يضطلع بأعباء وزارته كان توفيق ورياض اللذان نُكبت بهما البلاد يضيفان إلى أغلال التدخل الأجنبي التي مُنبت بها في عهد إسماعيل أغلالاً وقيوداً جديدة ، تارة في صورة مستشارين وموظفين يُفرضون على الدواوين الحكومية ، وتارة في صورة مؤسسات وشركات تستنفد موارد الشعب ومدخراته ، وبلغ من خرقهما أن تنازلا - كما أسلفنا - عن أرباح مصر في قناة السويس لقاء اثنين وعشرين مليوناً من الفرنكات . وأخذوا يخنقان الشعب خنقاً لا يطغيانها وظلمها وحكمهما الاستبدادي الصارم فحسب ، بل أيضاً بالسخرة والنفي والتشريد والعسف الشديد . وأخذ الشعب يلعنهما ويرميها بشر الصفات ، وتعالّت أصوات الصحف تُننر وتندد وتوجه لهما قارص النقد ، وتكونت جمعية سرية باسم الحزب

الوطني منذ نوفمبر سنة ١٨٧٩ جعلت مقرها حلوان ، وأخذت تطبع منشورات تكشف فيها عن مساوىء الحكم توزعها في البلاد وتشرها في بعض الصحف الفرنسية ، فارتجف توفيق ورياض ارتجافاً شديداً ، غير أنهما ظلا في غيبيتهما لا يرغويان . وقد ضمت هذه الجمعية كثيرين من أعيان البلاد وجلة ذوى الرأى فيها وبعض مديري أقاليمها ، يتقدمهم أحمد عرابى ومحمود سامى البارودى وعبد العال حلمى وعلى فهمى . وانتظام البارودى في هذه الجماعة يؤيد ما زعمناه من أنه أراد أن يعمى موقفه الحقيقى على توفيق ورياض ، ولعله أراد باستمراره في وزارته أن يكون عينا لرفاقه عليهما ، حتى يكونوا على بصيرة بما يتخذان من قرارات .

وكان رياض قد وضع عثمان رفقى الشركسى على وزارة الحربية والبحرية فكان وضعه على رأس تلك الوزارة ضيقاً على إبيالة ، إذ كان شركسياً ذمياً ، فسؤل له شيطانه أن يضطهد ضباط الجيش الوطنيين وأن يحرمهم من الترقى إلى المناصب الرفيعة ، بينما يخص بها أبناء جنسه من الضباط الشركسة والأتراك على الرغم مما جعلهم من عار في الحروب المصرية الحبشية . وامتلت صدور الضباط الوطنيين عليه موجدة وحفيظة فأجمعوا أمرهم بينهم على مقاومته حتى الموت . وتقدم عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى في ١٧ من يناير سنة ١٨٨١ بمذكرة إلى الحكومة حاسرين غير مقتنعين ، يطالبون فيها بعزل عثمان رفقى وتعديل القوانين العسكرية تعديلاً يحقق العدل والمساواة بين جميع الضباط في الجيش . وقرر مجلس النظار محاكتهم ، واستدرجهم رفقى حتى اعتقلهم ، وسارع زملائهم في الجيش ومعهم جنودهم فردوا إليهم حريتهم ، وارتعدت فرائص توفيق وجمع مجلس النظار ليتشاور معه في الأمر ، حينئذ انبرى البارودى يشير عليه بإجابة مطالب عرابى ورفاقه ، وصدع راغماً لمشورته ، وبذلك انحسر جانب من القناع الذى كان يُسندله على وجهه ، إذ عرف توفيق ما بينه وبين عرابى والجيش من ثقة متبادلة ، ومن ثم ضم إليه وزارة الحربية والبحرية . وخرج رفقى مدحوراً على وجهه ، وسرعان ما أخذ البارودى في إصلاح القوانين العسكرية مع زيادة رواتب الضباط والجنود . ولم يقر قرار توفيق ، فقد أخذ يثير الفتن في الجيش ضد عرابى وصحبه ، وأعميته الحيل ، فأقصى البارودى عن الوزارة نزولاً على رأى رياض وغيره من أصحاب اللبس الوضع ، وفي ذلك يقول :

نقموا على حَيِّتِي فتألبسوا حزياً على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفربتهم فلما صادفوا سمعاً يميل إلى الملام توسعوا^(١)

وانتم البارودي لنفسه من رياض ووقيعته الدنيئة ، إذ رسم في قصيدة طويلة
وضاعة نفسه وهوانه في نفوس قومه حتى لتتناوله أقلامهم بالثلب والذم ، وهو
غارق في لهوه ، ممن في مبادئه إمعان الضرع الدليل ، يقول :

فيا بن من تزدرية النفس من ضعة فما يحس له وجد وإعدام
دع الفخار وخذ فيما خلقت له من الصغار فإن الطبع لإزام
ويلمها خزبة طارت بشنعتها صحائف وجرت بالذم أقلام
وكيف يصلح أمر الناس في بلد حكامه لبنات اللهو خدام

ويظهر أن رياضاً وتوفيقاً بشا العيون والأرصاد من حوله ، ليقفا على صلته
بعرابي وصحبه من جهة وصلته بالجمعية الوطنية أو الحزب الوطني من جهة ثانية ،
وأحسن تربصهما به ، فولى وجهه شطر ضيئته بناحية قريرة في محافظة المنصورة
بشمال الدلتا . وأطلت عليه هناك ربة الشعر ، فنظم قصيدة يتغزل في مطلعها
ويحن إلى أيام الشباب ، ثم أخذ في وصف القطار الذي أقله ووصف الحقول
ونبات القطن ، وهو في تضاعيفها وخاتمها يحمد خروجه من الوزارة ورجوع حريته
إليه ، يقول :

الحمد لله الذي وهب العلاء وسرى الأذى غني فأبصرت الهدى^(٢)

ويتغنى ثانية بقصيدة بديعة يصف فيها محاسن الطبيعة الريفية ومباهج العيش
داعياً إلى البعد عن السياسة وما يحف بها من كيد وخديعة وحقده ومخاطر ومكاره ،
يقول :

(٢) سرى : كشف .

(١) الفرية : الكذبة .

فيا بن وُدِّي هَلُمَّ نَقْتَسِمِ اللِّهُ
هُوَ فَنَفْسِي إِلَى الصَّبَاحِ سِرَةٍ ^(١)
وَحَلَّنَا مِنْ سِيَاةٍ دَرَجَتْ
بَيْنَ أَنَا سِ قَلُوبُهُمْ وَغَرَهُ ^(٢)
يَقْبُضُونَ أَيَامَهُمْ عَلَى خَطَرٍ
فِيئَسَ عَقْبِي السِّيَاةِ الْخَطَرَهُ
خَدِيعةٌ لَا يَزَالُ صَاحِبُهَا
بَيْنَ هُمُومٍ وَعَيْشَةٍ كَدِيرَهُ

ولكن أيعتزل السياسة حقاً ويعود إلى لوه القديم ، يغرد بالخمير والحب ، والشعبُ من حوله قد نهض يطالب بحقوقه ، الشعب الذي طالما استفزّه ليثور على الظلم والبغى والعدوان ؟ لقد رأى أن يرجع إلى شعبه ، فرجع إليه قوياً نشيطاً شديد الأمل في أن يعصف هذا الشعب برياض وغيره ممن انتهكوا حرمانه ، وأخذ ياتي الناس ويتحدث إليهم في شئون الوطن . وما هي إلا أيام حتى ثار الجيش في ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ بقيادة عرابي مطالباً بعزل رياض وإعادة مجلس شورى النواب وزيادة عدد الجيش حتى يصبح قلعة حصينة للأمة يردّ عنها كيد المعتدين . وأذعن توفيق فعزل رياضاً وعهد إلى محمد شريف بتأليف مجلس نظار جديد ، فأشرك البارودي معه ناظراً للحربية والبحرية ، وأنشأ مجلساً نيابياً حراً . وأخذ يعرض عليه الدستور الذي كان قد أعدّه لأواخر عهد إسماعيل والذي تنص إحدى مواده على أن يكون للمجلس النيابي الحق الخالص في تقرير الميزانية . وأسرعت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية ، فقدمتا - كما أسلفنا في غير هذا الموضوع - مذكرة زعمتا فيها أن جعل تقرير الميزانية حقاً للمجلس من شأنه أن يمسّ حقوق الدائنين . ورأى محمد شريف أن يؤجل النص في الدستور على هذا الحق ، ولكن المجلس رأى في ذلك مساساً بكرامة الأمة وهدرأ لحقوقها الشرعية ، حينئذ اعتزل محمد شريف الحكم في ٢ من فبراير سنة ١٨٨٢ .

ودعا توفيق البارودي إلى تأليف مجلس النظار الجديد ، فألفه من زعماء الثورة العرابية وأنصارها ، وجعل لعرابي نظارة الحربية والبحرية ، وجعل للسودان نظارة تختص بالنظر في شئونه ، ومضى يطهر الجيش من جرائم الفساد الشركسية والتركية ،

وأعلن الدستور، ناصراً فيه على أن لمجلس النواب الحق النهائي في تقرير الميزانية. وتحتج إنجلترا وفرنسا فلا يكثر لاحتجاجهما، ويأخذ في إصلاح أداة الحكم وتأخذ إنجلترا في الدس الرخيص بين حكومته وتوفيق، ويصبح في يدها دُمِيَّةٌ تبعث به وتلعب كيف تشاء. ومايوافى شهر إبريل حتى تنكشف - كما مر بنا في غير هذا الموضع - مؤامرة وضبعة لطائفة من الضباط الشركسة كانوا قد تأمروا على اغتيال عرابي ومن معه من النظار واغتيال بعض كبار الضباط الوطنيين، وقدّموا إلى محكمة عسكرية فحكمت بنفيهم المؤبد إلى السودان وتجريدتهم من رتبهم وكل امتيازاتهم. وطُلب إلى توفيق التصديق على الحكم فأبى بإيحاء من قنصلي إنجلترا وفرنسا. وثارَت نائرة البارودي وعرابي ومن معهما من النظار، ولم يترعوا توفيق، إذ مضى يعدّل الحكم إلى النفي من مصر دون تقييد بالسودان مع عدم حرمان هؤلاء الخونة من رتبهم ونياشينهم. واتسعت هوة الخلاف بين الوزارة وتوفيق وتنادى كثيرون بوجوب خلعهم، وحاول بعض أذنابه أن يقتنعوا البارودي وعرابي بقبول هذا الضيِّم، وهنا نرى البارودي تحتدم في نفسه الثورة على توفيق احتداماً عنيفاً، وينظم قصيدة طويلة يصور فيها إصراره على موقفه وأنه لن يهدأ حتى تراق دماء الباغي غزيرة أو يثوب إلى رشده، يقول:

حسبوا التحول في الطباع خليقةً وتحول الأخلاق ليس يُطاقُ
تالله أهدأ أو تقوم قيامةً فيها الدماء على الدماء تُراقُ^(١)
أنا لا أقرُّ على القبيح مهابةً إن القرار على القبيح نفاق
قلبي على ثقةٍ ونفسي حُرةٌ تأبى الدنيِّ وصارمي ذلاقُ^(٢)
وعلام يخشى المرءُ فرقةً روحه أو ليس عاقبة الحياة فراق

ويميضي فيتحدث عن توفيق وبطائنه السيئة وأن الرفق معهم وإين الجانب يبظهم ولا يستلّ ضغيتهم إذ استحبوا الضلالة على الهدى. ويحض بقوة على الثورة مهوئاً

(١) أهدأ هنا: لا أهدأ. حذف النون مع القسم للشعر.

(٢) الصارم: السيف القاطع. ذلاق: حاد نافذ.

من شأن الموت الذى يدور كأسه على كل حى ، إن الموت الزؤام خير من حياة مهيتة ، وإنه لواجب على الشعب أن يتجمع ليضرب خصمه الضربة القاضية . وما يابث أن يصيح بتوفيق :

عِدَادِكَ فِي سَلَكِ الْبَرِيَّةِ خَزِيَّةٌ ودعواك حقَّ الملك أدهى وأعظمُ
لقد هانت الدنيا على الناس عندما رأوك بها فى ملك يوسف تحكّم^(١)
فإن تك أولئك المقاديرُ حكمها فقد حازها من قبلُ عبدٌ مُزَنَّم^(٢)
وشتان عبدٌ بالمحجّة ناطقٌ وحرٌّ إذا ناقشته القولُ أَعْتَم^(٣)
وهذا أذلُّ الملك وهو معزّزٌ وذاك أعزُّ الملك وهو مهضمٌ^(٤)
فمن شكَّ فى حكم القضاء فهذه جليّةٌ ما شاء القضاء المحتمُّ

وهو يصور محنة مصر بتوفيق الذى خلف يوسف الرسول الكريم على خزائنها وملكيها الطاهر ، وتمثّلُ فى مخيلته أهاجى المنتهى فى كافور ، ويراها جديراً بالمديح إذا قيس إلى توفيق ، الذى هوى بالوطن من حائق وأخذ يكسوه الذل والهوان ، ويرى فى ذلك سخرية من سخريات القدر وقضائه المحتوم . ويدعو البارودى المجلس النيابى ليفصل بين الحكومة وتوفيق فى التعديل آنف الذكر الذى أدخله على الحكم ، ويجتمع المجلس فى ١٢ من مايو ، ويقرر انتداب لجنة تتوسط بين الطرفين ، ويسوى الخلاف . غير أن توفيقاً مضى يتعلق بأهداب الإنجليز والفرنسيين ، حتى غدا كأنه عميل لهما ، وسرعان ما أرسل له ببوارج من أسطوليها خاضت مياه الإسكندرية ، وما وافى يوم ٢٥ من مايو حتى قدّم القنصلان : الإنجليزى والفرنسى إنذاراً إلى حكومة البارودى يطالبان فيه باستقالة الوزارة وإبعاد عرابى عن مصر وعبد العال حلمى وعلى فهمى إلى بعض قرى الريف . ومزقت الحكومة الإنذار

(١) يشير إلى ما جاء فى سورة يوسف من قيامه على خزائن مصر وتبوءه منها حيث يشاء .

(٢) عبد مزنم : يريذة كافورا الإخشيدى ، وكان عبداً اشتره الإخشيد سلطان مصر ومضى عنده يتقدم بحصافة عقله وشجاعته حتى أصبح من كبار قواده ، وصار إليه حكم مصر ، ونزل به المنتهى فلدسه ثم هجاه هجاه مرأ . مزنم : مستلحق بغير قومه .

(٣) أغم : عي لا يبين .

(٤) مهضم : كسير ذليل .

غير أن توفيقاً الآثم أعلن قبوله له ، فاكفهر الجوقدم البارودى استقالته .. ونعجب أن يستقبل ولا يُجهز على توفيق ، منفذاً عزمه على الثورة الدامية ، إذن لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث ، ولما حاقت بمصر كارثة الاحتلال المشؤم .

استقال البارودى ، غير أن عرابى ظل يصرف شئون وزارة الحربية والبحرية ، ولم يجد توفيق بين كبار المصريين من يرضى بتأليف مجلس نظار جديد ، وغامت السماء وعم الظلام ، وأخذت تنهار الآمال التى أحييتها فى نفوس الأمة ثورة عرابى والجيش فى ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ إذ أخذ المصريون يأملون فى حكم عادل رشيد ، يُسقط عنهم الظلم والطغيان ، وفى ذلك يقول البارودى :

كنا نودُّ انقلاباً نستريحُ بهِ حتى إذا تمَّ ساعةً لنا مصايرُهُ
تنكرتْ مصرُ بعد العُرفِ واضطربتْ قواعدُ الملك حتى ربيع طائره^(١)

فالملك أو الحكم قد تززع واضطرب ، واستحكم الهول ، حتى إن أحداً لا يجروا على تأليف الوزارة ، ولكن ألا ينكشف هذا الظلام الذى غمر البلاد ؟ إن البارودى غير يائس من انكشافه ، ولكن عن طريق واحد : طريق الثورة الحمراء الذى طالما هتف به ، ويصرخ :

لعل بُدْجَةَ نورٍ يستضاء بها بعد الظلام الذى عمّت دياجره^(٢)
إلى أرى أنفساً ضاقت بما حملتْ وسوف يَشْهَرُ حدَّ السيفِ شاهره^(٣)
شهرانٍ أو بعض شهرٍ إن هى احدثتْ وفى الجديدين ما تُغنى فواقره^(٤)

غير أن السيف ظل فى غمده ولم يُشهره فى حينه ، وانتهز الإنجليز الفرصة كى يحتلوا البلاد فدبروا فى ١١ من يونية مذبحه الإسكندرية المشهورة ، وانتقل إليها توفيق ليكون على مقربة من أسطولهم ، وليستند ضد شعبه

(١) العرف : ضد النكر ، ويراد به ما تطمئن إليه النفس من الخير . ربيع : فزع . والعبارة كناية عن اضطراب الأمن وشيوع الفوضى . (٢) بلجة النور : ضوء آخر الليل عند انبلاج الصباح . (٣) يشهر السيف : يتفضيه ويرفضه من غمده على عدوه . (٤) الجديدان : الليل والنهار . الفواقر : جمع فاقرة وهى الداهية .

على حرايهم . ولم تلبث مدافع الأسطول الإنجليزي أن ضربت الإسكندرية في ١١ من يولية وأبلى الجيش والشعب الإسكندري بلاء عظيمًا في دفع العدوان الأليم . وانسحب الجيش - بأمر عرابي - إلى كفر الدوار ، وأخذ في تحصين سواحل مصر وتعزيز خطوط دفاعه غربًا وشمالًا وشرقًا . وحين احتدم أوار الحرب في الميدان الشرقى دعا البارودى إلى الاشتراك في واقعة القصاصين فلبّاه ، على الرغم من أنه لم يكن من رأيه في محاربة الإنجليز ، يقول :

نصحتُ قوى وقلت الحرب مفعجةٌ وربما تاح أمرٌ غير مظنونٍ
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعةٌ وأصبح الشر أمرًا غير مكنونٍ
أجبتُ إذ هتفوا باسمي ومن شيمى صدقُ الولاء وتحقيق الأظنانين

ويذهب عبد الرحمن الراجعي في كتابه « الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي » إلى أنه لم يشترك في الواقعة المذكورة وأنه ضل الطريق بين الصالحية والقصاصين ، ويقول أيضًا إنه لم يشترك في واقعة التل الكبير ، ولكن في أشعار البارودى ما يدل على أنه اشترك في وقائع الحرب وأنه مضى يستبسل فيها حتى خذله بعض من معه ، إذ امتدت إليهم بعض أفاعى توفيق ، وأعانتهم الطعنة التي سددها العثمانيون إلى الجيش المقاتل بإعلان عصيان عرابي ، ومن ثمَّ يقول البارودى من قصيدة طويلة :

همُ عَرَضُونِي لِلقَتَا ، ثم أعرضوا سِرَاعًا ولم يَطْرُقْ من الشَّرِّ طارقُ
إذا المرءُ لم ينهَضْ بقائم سيفه فياليت شعري كيف تُحَمَى الحقائق^(١)

فهو حين دُعي إلى حمل راية الجهاد في تلك الحرب الوطنية لم ينكل ولم يتخاذل ، بل مضى قَدُمًا يجاهد ويناضل حتى تخلى عنه أنصاره ، يقول :

وكننا جميعاً فلما وقعتُ صَبِرْتُ وغادرتُ معشري

وفي ذلك ما يدل على أنه لم ينكص على عقبيه وأنه أسهم في وطيس القتال ، وفي رأينا أن من الظلم له أن يقال إنه كان طوال الثورة العرابية يعمل لحساب نفسه

(١) الحقائق : جمع حقيقة وهي ما يجب الدفاع عنه من أصل وعرض وبالك أو هي الأوطان .

لا لحساب أمته ، إذ كان يطمح إلى الجاه والسلطان ، بل لقد كان يطمح إلى الاستيلاء على عرش مصر وأنه من أجل ذلك أَلَبَّ العربيين على محمد شريف ، ليستقبل ويصبح هو رئيس مجلس النظار ، وما استوى على منصة الحكم حتى أخذ يوسع مسافة الخلف بين توفيق والعربيين ، كى يعملوا على إزاحته عن صدر مصر ، وبذلك يخلو له الجور ويعتلى عرشها العظيم .

ونحن لا نبرئه من هذا الطموح ، وخاصة أنه كان أهم شخصية سياسية بين العربيين الثائرين ، غير أننا نجعله ينشأ في نفسه مع الزمن وفي أثناء الحوادث ، ومعنى ذلك أننا نقدم على هذا الطموح الشخصي آماله القومية الوطنية في فك أغلال النفوذ الأجنبي عن عنق مصر وتخليصها من قبضة الظلم والسخرة والاستبداد وردّ حريتها إليها وسيادتها عن طريق اشتراكها في الحكم بحيث يكون حكماً شورياً ، وبحيث يكون لها فيه الكلمة العليا . غير أن آماله تحطمت وزُجَّ به في غياهب السجون ، بل لقد أصبح أبناء مصر جميعاً حبسين في سجن الاحتلال البغيض . ومرت على البارودي أيام سود في سجنه ، ينتظر في أثنائها محاكمته مع رفاقه ، وأمسك بريشته يصف هذا السجن قائلاً :

شَفَنِي وَجَدِي وَأَبْلَانِي السَّهْرُ	وَتَغَشَّتْنِي سَمَادِيرُ الْكَدْرِ ^(١)
فَسَوَادُ اللَّيْلِ مَا إِنْ يَنْقُضِي	وَبِيَاضُ الصُّبْحِ مَا إِنْ يُنْتَظَرُ
لَا أَنْيْسُ بِسَمْعِ الشُّكْوَى ، وَلَا	خَبْرُ بَأْتِي وَلَا طَيْفُ يَمْرُ
بَيْنَ حَيْطَانٍ وَبَابٍ مَوْصِدٍ	كَلِمَا حَرَكَةَ السَّجَانِ صَرَّ ^(٢)
يَتَمَشَّى دُونَهُ ، حَتَّى إِذَا	لَحِقْتَهُ نَبَأَةٌ مِنْهُ اسْتَقَرَّ ^(٣)
كَلِمَا دُرْتُ لِأَقْضَى حَاجَةً	قَالَتِ الظُّلْمَةُ : مَهَلًا لَا تَدُرُ

(١) سمادير : جمع مملور وهو غشاوة العين ، ويريد بها الموم .

(٢) موصد : مفلق . صر : من الصرير وهو الصوت .

(٣) دونه : قريباً منه . نبأة : صوت ضعيف . استقر : ثبت وقف .

أَتَقَرَّى الشَّيْءَ أَبْغِيهِ ، فَلَا أَجِدُ الشَّيْءَ وَلَا نَفْسِي تَقَرُّ (١)
ظِلْمَةٌ مَا إِنَّ بِهَا مِنْ كَوَكَبٍ غَيْرِ أَنْفَاسٍ تَرَامِي . بِالْشَّرِّ

وحوكم مع عرابي ورفاقهما أمام محكمة عسكرية ، شكَّلت من خصومهم ، وكانت المحاكمة مهزلة المهازل ، إذ حُكِمَ عليهما وعلى عبد العال حلمي وعلى فهمي وطلبة عصمت ويعقوب سامي ومحمود فهمي بالنفي المؤبد ، واختارت لهم الحكومة الإنجليزية جزيرة سرنديب . وأصدر توفيق أمراً بمصادرة أملاكهم ، وأمراً ثانياً بتجريدهم من جميع الرتب والألقاب . وبلغ العسف أقصى مداه فحُكِمَ على كثير من العرابيين بالنفي المؤقت أحكاماً تتراوح بين سنتين وعشرين سنة ، وجُرِّدَ كثيرون من رتبهم وامتيازاتهم ومناصبهم مع تحديد إقاماتهم . غير أن الثورة العرابية إن كانت قد أخفقت ، فإن روح الشعب ظلت قوية رغم محنة الاحتلال ، وسرعان ما أخذت تقاوم المحتلين الباغين ، لا تهدأ ولا تستكين ، على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع .

٤

في المنفى وبعده

حُكِمَ على البارودي بالنفي إلى سرنديب مع رفاقه من زعماء الثورة العرابية ، فظل بها نيفاً وسبعة عشر عاماً ، كانت فيها ربَّة الشعر محزونة حزنًا عميقاً ، محزونة على آمال مصر التي تحطمت معها آمال شاعرها ، ومحزونة على فراق الأصدقاء والأقرباء وخاصة شريكة الحياة وأفلاذ الأكباد ، ومحزونة على ملاعب الصبا والشباب التي طالما غرَّدت فيها بصوتها العذب فرحة مبتهجة ، وقد أخذت تشدو شدوها الحزين منذ حاقت بالخييش كارثة الهزيمة ، وأخذت الموموم تصهرها فن سجن إلى حكم بالنفي المؤبد إلى مصادرة للأملك ، ويبلغ اليأس من نفس

(١) أتقرى : أتبع وأتلمس . تقر : تستقر وتطمئن وتسكن .

البارودي ، وبصيح بتوفيق :

يا أيُّها الظالمُ في مُلكِهِ أغرَّكَ الملكُ الذي يَنفُذُ؟
اصنَع بنا ما شئتَ من قسوة فاللهُ عدلٌ والتَّلاقى غُدُّ

وما يروا في مساء ٢٧ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ حتى يُعَدَّ للبارودي ورفاقه قطار خاص في ثكنة قصر النيل يُقَلِّبُهُم إلى السويس ، وفي صبيحة اليوم التالي حملتهم باخرة إلى سرنديب ، ونزلوا بثغرها « كولومبو » في صباح ١٠ من يناير سنة ١٨٨٣ . ويلتاع قلب البارودي لفراق الوطن ، وتظل ساعات وداعه ماثلة في خياله ، والدموع تنهمر من عينيه ، فيتناول قيثارته ، ويتغنى بصوت شجيٍّ إحدى فرائده ، وفيها يقول مصوراً لوعته في أثناء الرحيل :

ولما وقفنا للوداع وأسبلتُ
أهبتُ بصبري أن يعود فعزيتُ
وما هي إلا خطوة ثم أقلعتُ
فكم مهجة من زفرة الوجد في لظي
وما كنت جربت النوى قبل هذه
ولكنني راجعتُ حلمي وردني
ولولا بُنياتٌ وشيبٌ عواطلُ
مدامعنا فوق الترائب كالمُزن^(١)
وناديتُ حلمي أن يشوب فلم يُغن^(٢)
بنا عن شطوط الحيِّ أجنحة السفن
وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن^(٣)
فلما دهنتني كدت أقضي من الحزن^(٤)
إلى الحزم رأيٌ لا يحوم على أفن^(٥)
لما قرعتُ نفسي على فائتٍ ينسى^(٦)

وقد مضى يعيش مع صحبه في « كولومبو » بنفس قوية صلبة ، على الرغم مما أناخ به من الظلم والنوى والتشريد ، وكأنما كل ما أصابه من محن لم يمس إلا ظاهر

(١) أسبلت : أهدمت . المزن : السحاب المطر .

(٢) أهبت : دعوت . عزيت : غلبت وتصعب على . يشوب : يرجع .

(٣) الوجد : الشوق . لظي النار : لهبها . الدجن : المطر الكثير .

(٤) النوى : البعد والفراق . أقضى : أموت .

(٥) أفن : ضعف وفساد .

(٦) عواطل هنا : لا يكسب ما يقوتن . قرع السن : ندم .

نفسه ، أما جوهرها فبقي صافياً وضيئاً ، ومن ثم بقي له اعتداده بنفسه وإحساسه
ببعدهمته ، وباضطرار نيران العزة في قلبه ، يقول مصوراً ارتفاعه عما أصابه من ضم:

أنا إن عشتُ لستُ أعدم قوتاً وإذا متُّ لستُ أعدم قَبراً
همتي همة الملوك ونفسي نفس حرُّ ترى المذلة كُفراً
ويظهر أن من رفاقه من كان يزيد عيشه كدراً ، باتهامه أنه إنما ثار طمعاً
في الملك لا غضباً لمصر ومادهمها من أرزاء الظلم وتغلغل النفوذ الأجنبي ، وكان
ذلك يؤذي نفسه إيذاء شديداً ، فنظم قصيدة طويلة صور في مطالعها احتفاظه
بشعور العزة والكرامة أمام عوادى الزمن وخطوبه ، ثم أخذ يرد على الاتهام الباطل
قائلاً :

يقول أناسٌ إنني ثرْتُ خالِعاً وتلك هَنَاتٌ لم تكن من خلَائقى ^(١)
ولكنني ناديتُ بالعدل طالباً رضا الله واستنهضتُ أهل الحقائق ^(٢)
أمرتُ بمعروفٍ وأنكرتُ منكرًا وذلك حكمٌ في رقاب الخلائق
وإن كان عصياناً قياي فإني أردتُ بعصيانى إطاعة خالقي
وهل دعوةُ الشورى على غضاضةٍ وفيها لمن يبغى الهدى كلُّ فارقٍ ^(٣)
بلى ! إلهما فرض من الله واجبٌ على كل حىٍّ من مسوقٍ وسائقٍ ^(٤)
على أنى لم آلُ نصْحاً لمعشرٍ أبى غدرهم أن يقبلوا قول صادقٍ ^(٥)
رأوا أن يسوسوا الناس قهراً فأسرعوا إلى نقض ما شادته أيدي الوثائق ^(٦)
فلما استمرَّ الظلم قامتُ عصابةٌ من الجند تسعى تحت ظلِّ الخواقيق ^(٧)

(١) هنات : خصال سوء . خلائق : طباع .

(٢) يريد بأهل الحقائق حماة البلاد الذين يصرون حقوقها .

(٣) فارق : أى بين الحق والباطل .

(٤) يريد بالمسوق المحكوم وبالسائق الحاكم .

(٥) لم آل نصحا : لم أقصر في النصح .

(٦) يسوسوا : يحكموا . ويريد بالوثائق موثيق الدستور وعهده .

(٧) الخواقيق : الرايات والأعلام .

وشايعهم أهل البلاد فأقبلوا إليهم سراعاً بين آتٍ ولاحقٍ
 يرومون من مولى البلاد نفاذاً ما تألاه من وعدٍ إلى الناس صادق^(١)
 فهذا هو الحق المبين فلا تسَلَّ سوى فإني عالمٌ بالحقائق

والبارودي ينفي عنه فكرة الخلع وبعبارة أخرى ينفي فكرة الطمع في الملك ،
 محاولاً أن يرد ثورته إلى طمع في أن يسود العدل حكم مصر ، وأنه انساق في ذلك
 بباعث من الدين الخفيف الذي يأمر أتباعه أن ينصحوا للناس والحكام باتباع المعروف
 والانتهاز عن كل منكر ، كما يأمر بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه . فهو إذا
 كان قد ثار وعصا فما أراد بذلك إلا طاعة الله من النداء بالعدل وبأن يقوم الحكم
 على الشورى التي فرضها الله على عباده . ويقول إنه حاول أن يرد توفيقاً عن غيبه
 وبغيبه واستبداده ، فلم يتصح بل مضى يعتدى على دستور الأمة وحقوقها
 المشروعة ، وثار الجيش وثار الشعب ، يطالبان توفيقاً باحترام الدستور الذي أقسم
 على الولاء له ، غير أنه حث مراراً في قسمه ، وتطورت الأحداث .

وعلى هذا النحو ينفي البارودي التهمة عن نفسه ، وليس معنى ذلك أن ملكه
 لمصر لم يدر بخلده ، فربما فكر فيه ، وذلك لا يعيبه ، إذ كان ينبغي حقاً أن
 يخرج ملكها من أيدي الأسرة العلوية الدخيلة إلى أيدي الأحرار من أبناء الوطن
 أمثال البارودي وعرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي . وإنما يدفعه إلى نفي التهمة
 أنها إن صحت وكانت هي التي دفعته وحدها للثورة نالت من وطنيته ، ولذلك رد^د
 عليها بقوة ، وقد عاد للرد عليها ونفيها في قصيدة ثانية مؤكداً أنه ثار لدينه ولوطنه ،
 يقول :

لم أقرِف زلَّةً تقضي على بما أصبحت فيه فماذا الويل والحرب؟^(٢)
 فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنبٌ أذَانُ به ظلماً وأغترِب؟
 فلا يظنُّ بي الحسادُ مندمةً فإني صابرٌ في الله مُحْتَسِبٌ

(١) تألاه : أقسم عليه وحلف .

(٢) أقرِف : ارتكب . الويل : العذاب . الحرب : السلب .

أثريت مجداً فلم أعباً بما سلبت أيدي الحوادث مني فهو مكتسب

ودائماً يلقانا البارودي في منفاه بهذه الروح القوية ، التي تجعله يعلن أنه غير نادم ، والتي تجعله يعتز بنفسه ، وكأنها صخرة يتحطم عليها - دون أن ينال منها - كل ما يطيف بها من ألم أو ضيق أو بأس . وقد ظل يعلن احتمالته للنفي بإباء وشمم ، وظل يقاوم صامداً للمحنة ، معتمداً على إيمانه بربه ووطنه ، ولم يحدث أن انكسرت نفسه يوماً ، بل لكأنما زادها النفي صلابة على صلابة وقوة على قوة . وكان كثيراً ما يهيج ما أصابه من ظلم ، فيثور ثورات عنيفة ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته :

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا لَا أَوْدُهُ وَأَيُّ امْرِئٍ يَقْوَى عَلَى الدَّهْرِ زَنْدُهُ

ويتحدث عن الحب والشباب والشيب ، ويأسى لقلة الصديق وندرة الوفاء ، وعنت الزمان بما سلط في مصر الأوغاد على الأحرار والوضيع الحسيس على السيد الشريف ، ويدعو الشعب إلى ثورة تعصف بحكامه المستبدين به ، وفي ذلك ما يدل على أن اليأس من الشعب وثورته على ظالميه لم يداخله يوماً ، يقول :

أبَى الدَّهْرُ إِلَّا أَنْ يَسُودَ وَضِيعُهُ وَعَمَلِكُ أَعْنَاقَ الْمَطَالِبِ وَعَدُهُ
فَحْتَامَ نَسْرِي فِي دِيَا جِيرِ مَحْنَةٍ يَضِيقُ بِهَا عَنْ صُحْبَةِ السَّيْفِ غَمْدُهُ (١)
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْفَعْ بَدَ الْجَوْرِ إِنْ سَطَّتْ عَلَيْهِ فَلَا يَأْسُفُ إِذَا ضَاعَ مَجْدُهُ (٢)
وَمِنْ ذَلِكَ خَوْفُ الْمَوْتِ كَانَتْ حَيَاتِهِ أَضْرُّ عَلَيْهِ مِنْ حِمَامٍ يُوْدُهُ (٣)
وَأَقْتُلْ دَاءَ رُؤْيَا الْعَيْنِ ظَالِماً يُسِيءُ ، وَيُتَلَّى فِي الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ

(١) دياجير : ظلمات . نسري : نسير ليلاً . غمد السيف : جفته الذي يوضع فيه .

(٢) سطت عليه : بطشت به وقهرته .

(٣) حمام : موت . يؤده : يقضى عليه .

علامَ يعيش المرءُ في الدهر خاملاً ؟ أي فرح في الدنيا بيوم يَجِدُهُ ؟
 عفاءً على الدنيا إذا المرءُ لم يَعِشْ بها بطلا يحمي الحقيقة شُدَّهُ (١)
 وإني امرؤٌ لا أستكين لصولةٍ وإن شُدَّ ساقى دون مسعاى قِدَّهُ (٢)
 ولا بُدُّ من يومٍ تلاعبُ بالقننا أسودُ الوغى فيه وتمرح جُرْدُهُ (٣)
 تُدَبِّرُ أحكامَ الطعان كُهولُهُ وتملك تصريفَ الأعنة مُردُهُ (٤)
 قلوبُ الرجال المستبديّةِ أكلُهُ وفيض الدماء المستهلّةِ ورْدُهُ (٥)
 فإما حياةٌ مثلُ ما تشتهي العُلا وإما ردى يَشْفى من الداءِ وقْدُهُ (٦)

وكانما يحاول البارودي أن يثير من جديد بركان الشعب ، حتى يسيل حُمَمًا ونارًا مندلعة على رموس من أرقهقه بعسفهم وظلمهم ، وكان شيئًا فيه لم يتغير ، فقد مضى يطمع في ذلك وكأنه لا يزال في وطيس المعركة ، ولا يزال ينشد الناس في مصر ، فيجذبهم إلى الناحية التي يريدونها ناحية الثورة على توفيق وأذنا به ومن اتخذوه عميلًا لهم من الأجانب : إنجلترا وغير إنجلترا. وقد مضى يستنهضهم ، ويبث فيهم حمية قوية ليردوا ما يقع عليهم من ظلم وعسف وبغى وعدوان ، وما الحياة وما قيمتها ؟ إن رضا الإنسان بالذل فيها والضميم موت ما بعده موت ، وإن الكريم الشجاع ليهب نفسه من دون وطنه يصونه ويحميه بدمه. ويحس البارودي على الرغم من نفيه كأنما دماء شبابه وفروسيته في كريت والحروب الروسية التركية تندفق من جديد في عروقه فينذر ويهدد بيوم الثورة العتيد الذي يثار فيه الشعب لعزته وكرامته .

- (١) الحقيقة: الوطن الذي يجب عليك أن تحميه، وكل ما ينبغي أن تنود عنه من أهل ومال .
 الشد هنا : النضال في القتال .
 (٢) الصولة : السطوة والبطش . شد : أوثق وقيد . القد : القيد .
 (٣) القنا : الرماح . الوغى : الحرب . الجرد : التحليل .
 (٤) الأعنة : جمع عنان وهو اللجام . وتصريف الأعنة : كناية عن تنفيذ خطط القتال . المرء :
 جمع أمرء وهو القلام في مطلع شبابه .
 (٥) المسهلة : المنصبة . الورد : النصيب من الماء .
 (٦) الردى : الهلاك . وقده : وفوده وقدمه .

إنه لا ينسى شعبه الذي خلُق ليكون صوته في تلك الدورة من حياته ، وليهيبته للثورة ، وليقتحم معه معاركها ، وإذا كان قد أضحى في بعض هذه المعارك فإن المعركة الكبرى تنتظره ، ويفعل البارودي غلياناً يريد أن تشب تلك المعركة سريعاً ، حتى يُقتلَع الظلم من جذوره ، وحتى يسقط الظالمون صرعى ظلمهم وبغيهم . وهو في ذلك تترج روحه بروح مصر ، وهو امتزاج قديم ، منذ درج على أرضها ، وتغذى بلبانها ، وطعم طبيباتها ، ونعم بمشاهدتها ، وثقف من آدابها ، وأسعد قلبه الحب في معاهدها ، وحارب تحت ألويتها ، وانبعث يهيجها للثورة على الظلم والعدوان ، متغنياً بعظمتها القديمة على نحو ما يلقانا في وصفه للهمين . ولقد ظلت تلوح له طوال نفيه على الأفق ، وظلت تأخذ بمجامع قلبه .

ويعجب الإنسان إذ يرى البارودي محتفظاً بكل ما عرفناه عنه من قوة نفسه ، وكان من الممكن أن يشعر بالضياح وأنه لا يزيد عن نقطة ضئيلة في البحار التي غرقتها سفينة المنى والتي تحيط به من كل جانب ، غير أن نفسه كانت من القوة بحيث نقضت عنها كل ضعف وكل فتور وكل خور ، فعاد ممتلئاً شاباً ، يفخر ، ويشير ، وينذر ويتوعد ، ويستنهض وينفخ في روح شعبه ، يريد أن يجمع قواه للمعركة الفاصلة . إنه لا يزال في سرنديب يلبس نفس الدروع : الدروع النفسية والدروع الحربية ، ولا يزال يُلقي سهام كلامه ، ومصر تستأثر به ، وتستولى على لُبِّه ، يقول :

تَرحَلْ من وادي الأراكة بالوَجْدِ فباتَ سَقِيماً لا يُعيد ولا يُبدي^(١)
سَقِيماً تَظَلُّ العائِداتُ حَوانياً عليه بإشفاق وإن كان لا يُجلى^(٢)
يَخلُنْ به مَساً أصاب فؤاده وليس به مَسٌّ سوى حُرْقِ الوَجْدِ

ويعمضى في القصيدة يشكو من حرقة قلبه ولوعته وسهاده كلما لمع في السماء برق من ناحية وطنه ، وكأنما يبني على أشواك بل لكأنما يبني في أظفار أسد

(١) الأراكة : شجرة يستاك بقضبانها ، وقد كنى بواي الأراكة عن مصر .

(٢) العائدات : زائرات المريض . يجلى : ينفع .

أو بين أنياب حيّة ، ولا متقد ولا مغيب :

ولا صاحبٌ غير الحسام منوطةٌ حمائلُهُ منى على عاتقِ صلْدِ^(١)
 إذا حرّكته راحتي لملممةٌ تطلّع نحوى يشربُ من الغمْدِ^(٢)
 أقول له والجفن يكسو نِجاده دموعاً كمرْفَضِ الجمانِ من العنْدِ^(٣)
 لقد كنتَ لى عوناً على الدهر مرةً فما لى أراك اليوم مُثَلِّمَ الحدِّ^(٤)
 فقال إذا لم تستطع سَوْرَةَ الهوى وأنت جليدُ القوم ما أنا بالجلدِ^(٥)
 وهل أنا إلا شِقةٌ من حديدهِ ألحَّ عليها القَيْنُ بالطَّرْقِ والحدِّ^(٦)

والبارودي يحمّل هذه الأبيات كل عذابه ، فقد أصبح غريباً وحيداً لا صاحب له سوى سيفه ، ويجس كأنما لا تزال له فتوته وصلابته ، ولا يزال سيفه كدأبه ، إذا أمسك به وهزّه مدّ إليه عنقه من غمده ليهوى به على ضربيته ، ولكن أين منه الضريبة ؟ لقد أصبح كتهاماً لا يقطع أو بعبارة أدق لم يعد للفارس المظفر من فريسة يطعنها الطعنة المصمية ، وكأنما سيفه أصبح مُفَسِّلاً لا يصلح لطنن ولا لتزال ، وسيول الدمع تنهمر على خديه لمصيره والوجد يلذع فؤاده ، وجنّده بوطنه الحبيب ، ويتجه إلى سيفه بالخطاب والعبرات تخنقه : لطالما أعتنتى ونصرتنى وأنجدتنى فى المآزق المهلكة ، فما بالك اليوم لا تأخذ بيدى ؟ ويحييه إننى لم أعد سيفاً ، إننى حديده مشقوقة ، لم تعد تملك لك نفعاً ولا ضرراً .

وتندلع فى قلبه نار الشوق إلى وطنه ، فيهتف باسم جزيرة المقياس وصاحبته بها ، وتمثّل فى ذاكرته بكل ما لها من فتنة وإغراء ، ويعلن أنها لا تزال تمدّ جناح

(١) الحسام : السيف القاطع . منوطة : معلقة . حمائل السيف : علاقته . العاتق : ما بين المنكب والعتق . صلْد : صلبقوى .

(٢) الراحة : بطن الكف . لممة : نازلة من نوازل الدهر ونوابه . يشرب : يمد عنقه متطلماً .

(٣) الجفن هنا : جفن العين . النجاد : حمائل السيف . المرْفَض : المشور . الجمان : القؤلؤ .

(٤) مثلّم : مفلل . (٥) سورة الهوى : سلوته وتباريحه . جليده وجلد : قوى صبور .

(٦) شقة : قطعة مشقوقة . القَيْن : الحداد وصانع السيوف . الطرق : الضرب بالمطرقة . الحد :

البرى بالمبرد ونحوه .

سلطانها عليه ، حتى لو بعثته على أن يرى بنفسه من شاطئ لا نبعث طائعا ، ويمس^٤
بدفعة من فتوته تنساب في أعماق روحه ، فيقول :

ولاني لمقدمٌ على الهول والسردي بنفسي وفي الإقدام بالنفس مايردي^(١)

وكان مما يوجب لوعته بغرته انتزاعه من عقر داره ومن بين أحضان زوجته
الشابة الحبيبة وفلذات كبده ، وبينما هو ذات ليلة غارق في نومه إذا طيف ابته
الوسطى سميرة يلمُّ به ، فتتقد عواطف الأبوة في صدره ، وتسيل أنات وزفرات ،
إذ يذكر ما كانت فيه هي وأخواتها من سعادة وارفة الظلال :

تعوذنَّ خَفَضَ العيش في ظلِّ والدٍ رحيمٍ وبيتٍ شيدته العناصر^(٢)

ويسترسل شاكياً من الدنيا وخداعها ودواهيها مصوراً احتمالها للننى وخطوبه
وكيف يلقاه بالصبر الجميل ويأمل في الله وأنه لا بد كاشف عنه تلك الغمة ،
يقول :

وقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه وتنهض بالمرء الجدودُ العوائر^(٣)

ولي أمل في الله تحيياً به المنى ويشرق وجه الظن والخطب كاشر^(٤)

وطيد يزل الكيد عنه وتنقضي مجاهدة الأيام وهو مثابر^(٥)

ويستبيري للدفاع عن مواقفه التي أدت به إلى كارثة الننى ، ويقول إن القدر
هو الذي اعترض شجاعته ولأنه نهض بأمور الوطن خير نهوض حين كان بيده
صوبلجان الحكم ، إذ أصلح الفاسد وزاد الصالح صلاحاً . ويقول أيضاً إنه وقف
مع أمته في محنتها ، فلم يتغدر ولم يحزن ابتغاء متاع زائل مما كان بيد توفيق .

(١) يردى : من الردى ، وهو الهلاك .

(٢) العناصر هنا : المناقب والمحامد . خفض العيش : دعت ونعيمه .

(٣) الجدود : المخطوط . العوائر : التي تمش وترطم .

(٤) كاشر : من كشر الأسد عن أنيابه إذا غضب .

(٥) وطيد : راسخ . يزل : يسقط .

ويستهين بما صادر من أملاكه ، ويقول إنه إن كان قد تَعَرَّى من المال والسلطان فإنه يكتسى بأعماله وأمجاده وما قدَّم لوطنه من خدمات ، ويفعمه الرجاء في أن ما صار إليه من النقي ستنحسر عنه بلواه ، يقول :

ولا غَرَوَ أن حُزْتُ المكارم عارياً فقد يشهد السيفُ الوغى وهو حاسِرٌ^(١)
وما هي إلا غَمْرَةٌ ثم تَنجَلِي غِيَابَتُها والله من شاء ناصرٌ^(٢)
وعلى هذا النحو ظلت للبارودي في سرديب نفسه القوية ، وأخذت تفيض ينابيعها بحنين لا ينضب إلى أهله ووطنه ، وأكثرَ من هذا الحنين كثرة لا تُعرَف لشاعر عربي من قبله ، وهو تارة يخصه بقصائد ومقطعات مفردة ، وتارة يمزجه بالحديث عن مواقفه قبل النقي كما يمزجه بالحديث عن كريم شيمه وما حقق لنفسه من مجد خالد بشعره .

وما هي إلا سنوات معدودات حتى أخذ البريد يحمل إليه نَعْيَ بعض أصدقائه وأهله ، فجزع جزعاً شديداً ، وأخذ يصور هذا الجزع في مرثا تمتاز بصدق الإحساس ، وكان من أوائل من طرق سمعه نَعْيُهُ أحمد فارس الشدياق الذي توفي في سنة ١٨٨٧ وكان عالماً لغوياً وأديباً كبيراً ، ومن أصدقائه المخلصين ، فأبسه تأبيناً حاراً يقول في تضاعيفه :

فقدناه فِقدانِ الشَّرابِ على الظَّما ففى كل قلبٍ غُلَّةٌ ليس تُنقَعُ^(٣)

ويُسَوِّقِي عبد الله فكرى في سنة ١٨٨٩ وكان رفيقه في وزارة الثورة ، وكان قبل ذلك من أصدقاء شبابه . وكان أديباً بارعاً وإن ظل متمسكاً بطريقة السجع القديمة . ولما نزل به نبأ وفاته تأثر تأثراً عميقاً ورثاه بأبيات رقيقة من مثل قوله :

فإن يكُ وليٌّ فهو باقٍ بأفقيهٍ كنجمٍ يشوقُ الناظرين بهاوهُ

وجاءه نعي الشيخ حسين المرصفي الذي طالما أشاد به في كتابه

(١) الوغى : الحرب . حاسر : مكشوف .

(٢) الغمرة : الشدة . غيابتها : ظلمتها . تنجلي : تنكشف .

(٣) الغلّة : حرارة العطش . تنقع : تزول .

« الوسيلة الأدبية » وأمضه الحزن فيكاه وبكى معه عبد الله فكروى وبكى معهما الوطن ، بل لقد مضى يبكى نفسه وشبابه حتى غدا كما يقول « أشلاء همة » لا يكاد يسمع ولا يبصر ، يقول :

أَخْلَقَ الشَّيْبُ جِدَّتِي وَكَسَانِي خِلْعَةً مِنْهُ رَثَّةَ الْجِلْبَابِ^(١)
وَلَوَى شَعْرَ حَاجِبِي عَلَى عَيْنِي نِيٌّ حَتَّى أَطْلُ كَالْهُدَابِ^(٢)
لَا أَرَى الشَّيْءَ حِينَ يَسْنَحُ إِلَّا كَخِيَالٍ كَأَنِّي فِي ضَبَابِ^(٣)
وَإِذَا مَا دُعِيتُ حَزْتُ كَأَنِّي أَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ
كَلِمَا رُمْتُ نَهْضَةً أَقْعَدْتَنِي وَنِيَّةً لَا تُقْلِبُهَا أَعْصَابِي^(٤)
لَمْ تَدْعُ صَوْلَةَ الْحَوَادِثِ مِنِّي غَيْرَ أَشْلَاءَ هِمَّةٍ فِي ثِيَابِ^(٥)
فَجَعَتْنِي بِوَالِدِي وَأَهْلِي ثُمَّ أَنْحَتُ تَكَرُّرٌ فِي أَتْرَابِي
كُلُّ يَوْمٍ يَزُولُ عَنِّي حَبِيبٌ يَا لِقَلْبِي مِنْ فِرْقَةِ الْأَحْبَابِ
أَيْنَ مِنِّي حُسَيْنٌ ؟ بَلْ أَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ رَبُّ الْكَمَالِ وَالْآدَابِ
مُضِيَا غَيْرَ ذِكْرَةٍ وَبِقَاءِ الْإِلَهِ مُذَكَّرٌ فَخَرٌ يَدُومُ لِلْأَعْقَابِ

ويفجؤه نعي زوجته زهرة حديقته التي كان يفوح شذاها في روضته ، والتي ظل أريجها يتضوع من بعده في بيته ، ويئن أنينا ويُعول عويلا ، ويبكى وينوح فإن التي كانت تنشر أجنحتها على فلذات كبده ، والتي كان يظن أنها ستكون أول من يلقاه في وطنه بعد طول غيبته وأول من يضمه إلى صدره ويدفنه بجمرة شوقه صوح عود شبابها الناضر ، فيا للفتنة ، ويا لحرقة الحزن الذي يشعل في قلبه قطعاً

(١) أخلق : أبلى . الجدة هنا : الشاب . رثة : بالية .

(٢) الهداب : مفرد أهداب ، وهو خل الثوب .

(٣) . يسنح : يعرض ويبلو .

(٤) ونية : ضمف . تقلها : تحملها .

(٥) صولة : سطوة . أشلاء : بقايا .

من النار ما يزال لهيبتها يتصاعد ، وباللوعة التي لا تخمد ولا تنطفئ ، يقول :

لا لوعتي تَدَعُ الفؤادَ ولا يَدِي تقوى على رُدِّ الحبيب الغادي^(١)
يا دهرُ فِيمَ فجعتنى بحليلة؟ كانت خلاصة عُدَّتِي وعتادي^(٢)
إن كنت لم ترحم ضنأى لبُعدها أفلا رِحِمْتَ من الأسي أولادي؟
أفردتنَّ فلمَ يَنَمَنَّ تَوَجُّعاً قَرَحِي العيون رواجفَ الأكياد^(٣)
أَلْقَيْنَ دُرَّ عقودهن ، وُضِعْنَ من دُرُّ الدموع قلائدَ الأجياد^(٤)
يبكين من وَلِهٍ فِراقٍ حَفِيَّةٍ كانت لهن كثيرة الإسعادِ

ويمضي في عويله وأنينه والدموع تتساقط على خديه ونار الحزن الممض تحرق أحشائه ، وينظر من حوله فيجد رفاقه لا يزالون يتخاصمون خصاماً عنيفاً فيما كان من أمرهم أيام الثورة ، ويصيبه رذاذ من هذا الخصام ، ويأسى أسى شديداً . ويتمنى لو استطاع النسيم أن يحمل إلى النور الذي خبا في التراب تحيته وسلامه يقول :

سِرْ يا نسيمُ فبلِّغِ القبرَ الذي بِحِمِّي الإمامَ تحيتي وودادي
أخبرُهُ أُنَى بعده في معشرٍ يَسْتَجلبون صلاحهم بفسادي

ويعصف به الحزن حتى ليمرض مرضاً شديداً ، فينصحه الأطباء بأن يترك « كولومبو » إلى هضاب سرنديب الداخلية ، ويحاول رفيقه يعقوب سامي أن يأسو جرحه ، فيزوجه من ابنته . ويتزل بها منذ سنة ١٨٩٠ مدينة « كندى » في وسط الجزيرة ويتبعه ختنه وبعض رفاقه . وفي ديوانه بيتان نظمهما حين ورد عليه بسرنديب نعي لإحدى فتياته ، وفيه أيضاً مرثيتان لابنه على يبكيه فيهما بكاء مُرّاً وليس فيهما ما يعين تاريخ وفاته وهل كانت قبل المنى أو في أثناءه .

(١) الغادي : الذاهب .

(٢) الحليلة : الزوجة . المتاد : ما به قوام الشيء وصلاحه .

(٣) قرحى العيون من قولم تقرحت العيون إذا كثرت من البكاء .

(٤) قلائد : عقود . الأجياد : جمع جيد وهو العتيق .

وقد ظل البارودي طوال مقامه بكندى يهفو به الحنين إلى وطنه ، ونلاحظ منذ إقامته بها تحولا يحدث في نفسه ، إذ أخذ يتجه إلى ربه يريد أن يلوذ بكنفه ، فقد تكاثرت عليه المحن والحطوب وتكسرت النصال تلو النصال ، مما جعله يزهد في متاع الحياة ، يقول :

إلَامَ يهفو بحلمك الطَّرْبُ؟ أبعـد خمسين في الصِّبَا أَرَبُ؟^(١)

ويتعمقه التفكير في الموت وأن كأسه دائرة على كل حي ، وأن العاقل من كَفَّ نفسه عن اللهو ودواعيه وأخلصها لربه ثابتاً مما قدم من ذنوبه توبة صادقة . ومنذ هذا التاريخ تكثُر أشعاره في الزهد ويتوجه إلى الله داعياً مبتهلاً ، ويتغنى بالرسول صلى الله عليه وسلم وبهديه الكريم ، وينظم فيه قصائد مختلفة لعل أروعها ملحمة التي سماها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » وفيها يصور سيرته الذكية تصويراً بارعاً على شاكلة قوله في وصف عروجه إلى السموات ومناجاته الذات الإلهية :

سما إلى الفلك الأعلى فنال به قَدْرًا يَجِلُّ عن التشبيه في العِظَمِ
وسار في سُبُحات النور مرتقياً إلى مدارجَ أعيت كلَّ مُعْتَزِمِ
وفاز بالجواهر المكنون من كلمٍ ليست إذا قُرئت بالوصف كالكلمِ
سِرُّ تحارُّ به الأبوابُ قاصرةً ونعمةٌ لم تكن في الدهر كالنعمِ
هيهات يبلغ فهمٌ كُنَّه ما بلغت قرباه منه وقد ناجاه من أممٍ^(٢)

ومضى البارودي بجانب تغنيه على هذا الوتر الذي شده إلى قيثارته يتغنى على أوتارها القديمة، متحدثاً عن وطنه وما يقع عليه من مظالم، وتعاوده ذكرياته الأليمة والبهيجة ، على نحو ما تصور ذلك قصيدته التي نظمها في سن السابعة والخمسين والتي يستهلها بقوله :

(١) الصبا : نزوات الشباب . أرب : حاجة نفس .

(٢) أم : قرب .

بناظركِ الفَتَانُ آمَنْتُ بِالسُّحْرِ وهل بعد إيمانِ الصَّبَابَةِ من كُفْرٍ؟

وفيهما يتحدث عن حبه القديم وشيمه الرفيعة . وفي أثناء مقامه بسرنديب كان يرأسه بعض الشعراء من أمثال شكيب أرسلان ، ورأسه بعض أدباء الهند . وتعلم الإنجليزية ، ويقال إنه ترجم منها بعض الموضوعات إلى العربية ، ويقال أيضاً إنه عُنِيَ بتعليم بعض مسلمي كندى القراءة والكتابة ، حتى يعرفوا لغة دينهم الخفيف ، وكان يؤم المسلمين هناك في بعض الجمع . وحسبى عباساً الثاني في عيد الفطر سنة ١٨٩٦ تحية قصيرة ، لعله يرد إليه حرته ، ولكن عباساً أصم سمعه ، فصاح البارودي :

يَسْتَعْظَمُونَ مِنَ الْحَجَّاجِ صَوْلَتَهُ وَكُلِّ قَوْمٍ بِهِمُ لِلظُّلْمِ حَجَّاجُ

ولانصل إلى نهاية العقد الأخير من القرن حتى يصاب بارتشاح في القرنيتين كاد يفقده بصيص النور الذي كان لا يزال يضيء في عينيه ، فقررت جمعية الأطباء بسرنديب وجوب عودته إلى وطنه لمعالجته في المناخ الذي وُلد وشبَّ وعاش فيه ، وألحوا عليه أن يقدم التماساً إلى الخديو عباس الثاني كي يرده إليه . وعاد الليل الغريد إلى روضته في غضون سنة ١٩٠٠ ، وردَّ عليه عباس أملاكه المصادرة ، غير أن نور بصره لم يُردَّ إليه ، فقد انطفأ نهائياً . ولم تكد قدماه تلمس ثرى القاهرة حتى أنشد قصيدته الرائعة :

أَبَابِلُ رَأَى الْعَيْنَ أَمَ هَذِهِ مِضْرُ فَإِنِّي أَرَى فِيهَا عَيْوناً هِيَ السُّحْرُ

وقد مضى فيها يتغزل بفاتنات مصر مصوراً ما يدلن في قلوب العشاق من فتنة وإغراء لا يجدون عنهما منصرفاً ولا إلى التخلص منهما سبيلاً ، كما مضى يتمدح بعزة نفسه وصلابة روحه وبأسه الشديد .

وأخذت مصر تضم ابنها البار إلى صدرها حانية عليه ، وأثر في نفسه تأثيراً عميقاً ما رآه على جسدها من جروح الاحتلال الإنجليزي البغيض وقروحه ، فتوجَّع لها ولمصابها الأليم ، وتناول قيثارته يوقع عليها قصيدته البديعة :

هل بالحِمْي عن سرير المَلِكِ من يَزَعُ؟ هيهات قد ذهب المتبوع والتَّبَعُ (١)

وأخذ يتحدث عن عهد إسماعيل المشثوم ، وكيف راح غير مبكى عليه ولا مأسوف ، لما أنزل بالشعب من المظالم وكوارث الديون . وقد حَيَّى عباساً بعد عودته وهنأه بميلاد ابنه محمد عبد القادر في سنة ١٩٠١ ولعل الذي دفعه إلى ذلك أن عباساً حينئذ كان يضع يده في يد مصطفى كامل مغاضباً للإنجليز . على أن البارودي لم يسترسل في مديحه ، ولو أنه عاش حتى رآه يخنع للإنجليز خنوعه المعروف بعد حادثة الجيش في سنة ١٩٠٦ إذ مضى يشيد بقائده كمشتر وصنيعه فيه ، وكان أعلن من قبل عدم رضاه عنه ، ثم عاد يسترضى الإنجليز ويستعطفهم ، ولو أن البارودي عاش حتى رأى هذا الخنوع ما حدثته نفسه بمديحه ، ومع ذلك فمدحتاه له قصيرتان ، وهما ليستا أكثر من تحية عابرة .

وقد لزم البارودي بيته ولم يختلط بأحد سوى أهله وأصدقائه المخلصين ومن أنس إليهم من الكتاب والشعراء ، ويؤثر عنه أنه كان إذا ناداه أحد « سامى باشا » أنشد ساخراً :

حَبْرَتُكَ ألقابَ العُلا فاذعني باسمي فما تخفض الألقابُ حُرّاً ولا تُسمي

وقد قرَّظ الجزء الأول من ديوان مصطفى صادق والرافعى حين نشره في سنة ١٩٠٢ كما قرَّظ الجزء الأول من ديوان حافظ حين طبعه . وكان له ولدان وأربع فتيات ، وحدث أن توفيت إحدى فتياته في ليلة زفاف أخت لها إلى زوجها ففرغ فزعماً شديداً ، وواساه حافظ وشوقي ، على نحو ما يرى القارئ لديوانيهما . وقد مضى منذ أوبته إلى وطنه يهب الشطر الأكبر من وقته لتنقيح ديوانه وإعداده للطبع وترتيب مختاراته المشهورة وإعدادها للنشر ، وقد جمع فيها مختارات ثلاثين شاعراً يدهون بيشار بن برد رائد الشعر العباسي ويتتهون بابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ للهجرة . ولا نصل إلى الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٤ حتى يسلم روحه الطاهر إلى بارئه ، وترتج مصر والشرق العربي لنعيبه ، ويبكيه

الشعراء ويندبونهم ندباً حاراً، ويجمع ندبهم وبكاهم خليل مطران في كتاب وينديعه. وقد نهضت أرملته من بعده بطبع المختارات في أربعة أجزاء كبار ، كما نهضت بطبع جزءين من ديوانه ينتهيان بقافية اللام قام على طبعهما وشرح أشعارهما محمود الإمام المنصوري أحد علماء الأزهر . وفي سنة ١٩٤٠ عهدت وزارة التربية والتعليم إلى الأستاذين علي الجارم ومحمد شفيق معروف بطبع الديوان ، فنشرا منه جزءين ينتهيان بقافية الكاف . ولا تزال تنتظر النشر بقية الديوان النفيس الذي رقى بصاحبه إلى قمة المجد الأدبي الخالد .